الجائزة الكبرى

مغامرات أرسين لوبين

الجائزة الكبري

الكاتب الفرنسي المعروف
موريس لبلان

ترجمة
يوسف أبو الحجاج

١ ورقة اليانصيب رقم ٥١٤

في يوم ٨ ديسمبر من العام الماضي رأى مسيو جربوا أستاذ الرياضيات بجامعة فرساي في أحد محال بيع الأشياء القديمة مكتبا صغيراً من خشب الأكاجو، راقه لكثرة أدراجه وقال يحدث نفسه

-هذه خير هدية لسوزان بمناسبة عيد ميلادها

ونظراً إلى موارده المتواضعة، ولأنه كان يريد أن يسعد ابنته فقد ظل يساوم البائع حتى خفض له الثمن إلى ٦٥ فرنكاً.

وبينما كان يملي عنوانه للبائع تقدم منهما شاب أنيق المظهر كان ينقب في المحل ذات اليمين وذات الشمال، فرأى المكتب وسأل البائع.

-بكم هذا المكتب فأجابه البائع

-إنه مباع.

-آه..لعل السيد هو الذي اشتراه؟

حياه مسيو جربوا وقد سره حصوله على المكتب الذي يطمع فيه أحد مواطنيه، ولكنه لم يكد يسير في الشارع بضع خطوات حتى لحق به الشاب وقال له وهويرفع قبعته.

-معذرة يا سيدي..ولكن اسمح لي أن أتطفل وأسألك إن كنت قد بـ هذا المكتب بالذات؟

أنشد ميزاناً صغيراً لاستخدامه في بعض تجاربي.

لا تتمسك بهذا المكتب.

- بل أتمسك به.

- لأنه قديم؟

- بل لأنه مريح ومفيد.

- إذن فقد تقبل أن تستبدله بمكتب آخر أكثر نفعاً وبحالة جيدة

- هذا المكتب في حالة جيدة، ولا أرى داعياً لاستبداله

- ومع ذلك.

ولما كان مسيوجربوا رجل سريع الانفعال والغضب فقد قال في حدة.

-أرجو أن تكف عن الإلحاح أيها السيد.

ولكن الشاب لم يتزحزح عن مكانه وقال:

لا أعرف كم دفعت فيه يا سيدي، وإنني أعرض عليك ضعف ما دفعت.

كلا.

-ثلاثة أضعاف.

صاح الأستاذ وقد نفد صبره:

-أوه..كفى يا سيدي..إنني لا أبيع ممتلكاتي.

نظر الشاب إليه نظرة طويلة..نظرة لا يمكن أن ينساها مسيو جربوا، ثم دار على عقبيه وانصرف دون أن ينبس بكلمة.

أرسل البائع المكتب بعد ساعة إلى البيت الذي يقيم فيه مسيو جربوا بشارع فيرفلاي ونادى الأستاذ ابنته وقال لها :

-هذا المكتب لك يا سوزان..هذا إذا راق لك.

وكانت سوزان مخلوقة جميلة..صريحة وسعيدة فألقت بنفسها على عنق أبيها وعانقته في مرح كما لو أنه قدم لها هدية ملكية..نقلته إلى غرفتها في نفس الليلة..بمساعدة خادمتها هورتنس ونظفت أدراجه ورتبت فيه أوراقها ومراسلاتها ومجموعتها من البطاقات البريدية،

وبعض الذكريات السرية التي تجمع بينها وبين ابن عمها فيليب.

وفي منتصف الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، مضى مسيو جربوا إلى الجامعة، وفي الساعة العاشرة وجد سوزان تنتظره على الرصيف المقابل كعادتها وكان يسره دائماً أن يراها بوجهها الصبوح وابتسامتها الصبيانية.

وسألها وهما يعودان معاً ومكتبك.

إنه جميل وقد نظفته أنا وهورتنس ولمعنا النحاس حتى بدا كأنه الذهب.

-أنت مسرورة إذن؟

صاحت:

-جداً، بحيث لا أدري كيف أمكنني الاستغناء عنه حتى اليوم.

وعبرا الحديقة المؤدية إلى البيت وقال مسيو جربوا.

-هل يمكن أن نمضي لرؤيته قبل أن نتناول الغذاء.

-أوه..أجل..هذه فكرة جميلة.

وأسرعت بالصعود ولكنها ما كادت تبلغ عتبة غرفتها حتى أطلقت صيحة ذعر فتمتم مسيو جربوا.

-ما الخبر؟

ودخل الغرفة بدوره..كان المكتب قد اختفى.

كان الشيء الذي أدهش قاضي التحقيق هو البساطة الفائقة للطريقة التي استخدمت، فأثناء غياب سوزان، وبينما كانت الخادمة تتسوق أوقف أحد الحاملين عربته الصغيرة أمام الحديقة ودق الجرس مرتين ولما كان الجيران لا يعرفون أن سوزان في الخارج فلم يداخلهم أي شك بحيث إن الرجل قام بعمله بكل اطمئنان.

ولوحظ أنه لم يغتصب أي دولاب أو يمس أي شيء بالبيت بل الأكثرمن ذلك أن سوزان كانت قد تركت كيس نقودها فوق سطح المكتب فوجدته فوق المنضدة المجاورة بما فيه من نقود ذهبية..كانت سرقة المكتب متعمدة إذن مما جعل الأمر يبدو مستغلقاً إذ لماذا المجازفة من أجل غنيمة طفيفة كهذه.

كان الدليل الوحيد الذي استطاع الأستاذ أن يقدمه هوحادث الأمس فقال :

- لقد بدا على ذلك الشباب الاستياء الشديد إزاء رفضي وأحسست بكل وضوح أن نظرته لي كانت تنطوي على التهديد والوعيد.

ولكن ذلك الدليل كان غامضاً وتم استجواب البائع فقال إنه لا

يعرف أي من هذين السيدين أما المكتب فقد اشتراه بأربعين فرنكاً من مزاد بعد وفاة صاحبه ولم يسفر التحقيق عن شيء أكثر من ذلك.

ولكن مسيوجربوا أعتقد بأنه مني بخسارة فادحة إذ لا ريب أن ثروة كبيرة كانت مخفاة في درج سري بالمكتب كان الشاب يعرف بأمره وتصرف بكل دقة للاستيلاء عليها.

وقالت سوزان:

-وماذا كنا نفعل بتلك الثروة يا أبي العزيز؟

-ماذا تقولين؟ كان يمكن أن يتيح لك مهر هكذا أحسن زيجة.

كانت كل أطماع سوزان لا تتجاوز ابن عمها فيليب، وهو شاب لا يتمتع بأيه ثروة فتنهدت في مرارة واستمرت الحياة في البيت الصغير في فرساي أقل مرحاً وأكثر هماً تظلها التحسرات والآمال الضائعة.

ومر شهران وفجأة تتابعت الأحداث..بصورة غير متوقعة.. صدف سعيدة ومصائب.

ففي منتصف الساعة السادسة من أول فبراير أقبل مسيوجربوا وفي يده جريدة المساء، وجلس ووضع نظارته وراح يقرأ. ولم يكن يهتم بأبناء السياسة فقلب الصفحة ولفت نظره مقال بعنوان:

السحب الثالث ليانصيب اتحاد الصحافة

الورقة رقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣ فازت بمليون فرنك أفلتت الجريدة من بين أصابعه، واهتزت الجدران أمام عينيه، وتوقف قلبه عن نبضاته، فإن ورقة اليانصيب رقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣ ملكه اشتراها من صديق صدفة واتفاقا لكي يجامله لأنه لم يكن يؤمن بالحظ أبدا ولكن ها هو الآن قد ربح.

وأسرع فأخرج مفكرته..ربحت الورقة رقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣ حقاً ولكن الورقة..

وهرع إلى مكتبه ليبحث في صندوق الرسائل الذي ضم إليه الورقة الثمينة، وما كاد يدخل حتى ترنح وتسارعت دقات قلبه لأنه لم ير الصندوق مكانه، والشيء المخيف هو أنه تذكرأن ذلك الصندوق لم يكن مكانه منذ أسابيع وصاح :

– سوزان..سوزان! وأقبلت بسرعة فسألها بصوت مكتوم:

سوزان.. الصندوق.. صندوق الخطابات.. ذلك الذي كان فوق هذا الخوان.

– ولكن هل نسيت يا أبي.. إننا وضعناه معاً في المكتب.

- أي مكتب؟
- المكتب الذي سرق.

ارتسم الذعر على وجهه، وأمسك بيد سوزان وقال :

فتمتمت في سذاجة :

- ولماذا لم تقل لي ذلك يا أبت؟
- مليون! جائزة ورقة يانصيب اتحاد الصحافة.. حطمتها فداحة الكارثة، ولزما الصمت مدة طويلة، لا يجدان الشجاعة لقطع حبله.

وأخيراً قالت سوزان :

- ولكنهم سيسلمونك ذلك المبلغ مع ذلك.
- ولماذا؟.. وبأي دليل؟

.. وهل لا بد من دليل.

- طبعاً، وقد كان الدليل في الصندوق
- الصندوق الذي اختفى؟

أجل.. والآخر هو الذي سيقبض الجائزة.

- ولكن هذا فظيع.. يمكنك أن تعترض يا أبي.

- وكيف أستطيع؟.. إن ذلك الرجل قوي جداً، وواسع الحيلة.. تذكري سرقة المكتب.

ونهض في دفعة من النشاط وضرب الأرض بقدمه وصاح :

- ولكن لا. وألف لا. لن يظفر بذلك المليون.. ولماذا يظفر به؟

فمهما كان واسع الحيلة والذكاء فهو الآخر لا يستطيع شيئاً، لأنه إذا تقدم لاستلام الجائزة سوف يقبضون عليه، أوه سنرى يا صديقي سنرى.

- هل تفكر في شيء يا أبي؟

- نعم.. وهوالدفاع عن حقوقنا حتى النهاية مهما حدث، وسنفلح. إن المليون من نصيبي أنا وسوف أظفر به.

وبعد بضع لحظات أرسل البرقية التالية :

مدير بنك الكريدى فونسييه بشارع كابوسيني بباريس

أنا صاحب ورقة اليانصيب رقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣

وأعترض بكل الطرق القانونية على أية مطالبة أخرى جربوا

وفي نفس الوقت تقريباً، تسلم مدير البنك البرقية التالية :

" ورقة اليانصيب رقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣ معي

أرسين لوبين

في كل مرة أبدأ فيها بسرد إحدى وقائع أرسين لوبين العديدة، أشعر بارتباك شديد لأنه يخيل لي أن اتفه هذه المغامرات معروفة من القراء فليس هناك حركة من حركاته إلا وقد تركت صداها وأحدثت دوياً وراح الجمهور يدرسها من كل نواحيها، وليس هناك من عمل من أعماله إلا وقد علق عليها الجميع كما لو أنه عمل من أعمال المقاومة البطولية.

فمن منا لا يعرف حقاً مغامرة الغادة الشقراء بأحداثها القريبة التي نشرها الصحفيون بالأحرف الكبيرة وورقة اليانصيب رقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣ وجريمة شارع هنري مارتن.. والماسة الزرقاء، والضجة الشديدة التي أثارها تدخل البوليس السري الإنجليزي الشهير شرلوك هولمز والنضال العجيب الذي دار بين هذين الرجلين الغريبين، ثم الضجة التي أحدثها صياح بائعة الجرائد وهم يقولون القبض على أرسين لوبين.

ولكن عذري هو أنني أروي الجديد، وأذكر حل اللغز فإن الغموض يحيط دائماً بتلك المغامرات وبروايتي لها ينقشع ذلك الغموض ويعرف القراء ما خفي عليهم، فإنني أسوق ماحدث وما تلا تلك الأحداث وأرتبها حسب وقوعها، ثم أذكر الحقيقة الكاملة، ويعاونني في ذلك أرسين لوبين.

لوبين نفسه فثقته بي كبيرة ومجاملته لي لا حدود لها، كما أحظى بمعاونة صديقي واطسون، مساعدة شرلوك هولمز وموضع ثقته.

لا ريب أن القراء يذكرون موجة الضحك والسخرية التي أعقبت البرقية المزدوجة.. كان اسم أرسين لوبين وحده أكبر دليل على توقعهم لأمور غريبة سوف تدهش العالم أجمع.

قام بنك الكريدي فرنسييه بتحرياته على الفور، وثبت أن الرقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣ قد باعها فرع البنك بفرساي إلى قومندان المدفعية بيسي وأن القومندان مات عقب وقوعه من فوق جواده واعترف بعض أصدقائه بأنه قال لهم قبل موته أنه باع تذكرته إلى صديق له وقال مسيو جربوا :

- أنا ذلك الصديق.

واعترض مدير الكريدي فونسييه قائلاً :

- اثبت ذلك.

- أثبته؟.. بكل سهولة سيقول لك عشرون شخصاً أنني كنت على علاقة وثيقة مع القومندان، وأننا كنا نلتقي كل مساء في مقهى «ميدان السلاح» وأنني لكي أعاونه في ظروفه الصعبة أخذت تذكرته مقابل عشرين فرنكا.

- ألديك شهود على ذلك؟
- كلا.
- إذن علام تستند في توكيدك هذا؟
- على الخطاب الذي أرسله في هذا الصدد.
- وأين هو؟
- ولكنه مرفق بالتذكرة وموجود في المكتب المسروق.
- ونشر أرسين لوبين الخطاب المذكور في جريدة إيكودى فرانس التي يبدو أنها لسان حاله والتي لا ريب أنه واحد من أهم المساهمين فيها فقد جاء بها نبأ يقول إن أرسين لوبين سيودع بين يدي محاميه ومستشاره الأستاذ دتنيان الخطاب الذي أرسله إليه القومندان شخصياً.

أثار هذا النبأ موجة من الضحك.. أرسين لوبين يتخذ له محامياً..

أرسين لوبين الخارج على القانون يحترم القانون ويوكل عنه أحد رجال القانون.

وأسرع رجال الصحافة إلى دتنيان، وهو نائب راديكالي واسع النفوذ، وعلى قدر كبير من الذكاء وإن كان متشدداً بعض الشيء.

قال إنه لم يتشرف بمعرفة أرسين لوبين وأن ذلك من دواعي أسفه الشديد وأنه تلقى تعليماته وأحس بزهو كبير لاختيار أرسين لوبين له وصمم على أن يدافع عن حقوقه بكل شدة، وفتح الملف الجديد الذي أمامه وعرض عليهم خطاب القومندان، كان يؤكد فيه أنه باع التذكرة حقاً، ولكنه لم يذكر اسم المشتري وإنما قال صديقي العزيز فحسب.

وأردف أرسين لوبين في مذكرة ضمها إلى الخطاب :

وهذا الصديق هو أنا، وأكبر دليل على ذلك هو أن الخطاب معي.

وانتقل الصحفيون إلى بيت مسيو جربوا، ولم يسع هذا الأخير إلا أن يقول.

- هذا الصديق العزيز ليس بأحد غيري لقد سرق أرسين لوبين خطاب القومندان مع ورقة اليانصيب.
- وقال لوبين للصحفيين :
- فليثبت ذلك.
- صاح مسيو جربوا أمام نفس الصحفيين :
- ولكن ما دام هو الذي سرق المكتب.
- عاد لوبين يقول :

- فليثبت ذلك.

وكان نضالاً عجيباً الذي دار علناً بين حائزي ورقة اليانصيب، وانتقال الصحفيين بينهما وجرأة أرسين لوبين أمام هلع مسيو جربوا المسكين.

كانت الصحف تزخر بهموم المسكين، وكان يتكلم عن حظه العاثر بسذاجة مؤثرة.

- افهموا أيها السادة.. إنه مهر ابنتي سوزان الذي سرقه هذا الوغد إن ضياعه لا يهمنى أنا بالذات، ولكن بالنسبة لسوزان.. إنه مليون فرانك..
- كنت متأكداً تماماً أن المكتب يضم ثروة.
- ولما قيل له أن غريمه لم يكن يعلم بوجود ورقة اليانصيب عندما سرق المكتب وأن ما من أحد كان يتوقع أن تربح تلك الورقة الجائزة الكبرى تأوه وقال :
- بل كان يعرف.. وإلا ما جشم نفسه هذا العناء واستولى على ذلك المكتب الحقير
- إنه أخذه لأسباب غير معروفة، وليس للحصول على ورقة لم تكن تساوي عندئذ إلا مبلغاً بسيطاً وهو عشرون فرنكاً

- بل تساوي مليوناً.. كان يعرف ذلك إنه يعرف كل شيء.. آه أنتم لا تعرفون هذا الشقي.. إنه لم يسلبكم أنتم مليونا وكان يمكن لهذا المونولوج أن يستمر وقتاً أطول، ولكن مسيو جربوا تلقى في هذا اليوم الثاني عشر رسالة خاصة من أرسين لوبين قرأها في جزع زائد :

سيدي

إن الناس تتسلى على حسابنا، أفلا ترى معي أن الوقت حان لوضع حد لهذا النزاع.. من جهتي أنا لا مانع عندي على الإطلاق.

إن الموقف واضح أنا لا أملك التذكرة التي لا حق لي فيها، وأنت لك الحق في تذكرة لا تملكها، ولهذا لا يمكن لأي منا أن يفعل شيئاً من دون الآخر.

وأنت لن تتنازل عن حقك، ولن أتنازل أنا عن تذكرتي كذلك في العمل؟

لا أرى غير وسيلة واحدة وهي أن نتقاسم نصف مليون لك ونصف مليون لي، أليس هذا عدلاً.

هذا حل عادل ولكنه حل عاجل لا سبيل أمامك لرفضه فإن الضرورة تحتم عليك قبوله وإنني أمهلك ثلاثة أيام للتفكير والتروي،

وأحب أن أقرأ في صباح الجمعة في جريدة إيكودى فرانس رسالة حذرة موجهة إلى أرسين لوبين تعلن فيها بكلمات مستترة قبولك اقتراحي هذا دون قيد أوشرط وبهذا تسترد تذكرتك على الفور وتحصل على المليون فرنك على أن ترسل إلي الخمسمائة ألف فرنك بالطريقة التي سأوضحها لك فيما بعد أما إذا رفضت فقد اتخذت تدابيري لكي تكون النتيجة واحدة، ولكن فضلاً عن متاعبك الشديدة التي ستواجهها عندئذ والتي سيتسبب فيها عنادك وإصرارك فسوف يخصم من نصيبك خمسة وعشرون ألف فرنك نظير نفقات إضافية.

وتفضل سيدي، بقبول أصدق تحياتي

أرسين لوبين

ارتكب مسيو جربوا في سورة غضبه حماقة كبيرة بأن أعلن عن هذا الخطاب ونشر صورة منه، دفعه سخطه إلى كل الحماقات صاح أمام الصحفيين :

-لا شيء.. لا شيء.. معه ما يخصني؟.. قال :

- فليمزق التذكرة إذا شاء.

وقيل له.

ومع ذلك فإن خمسمائة ألف فرنك خير من لا شيء.

- ولكن المليون كله من حقي، وسأثبت هذا الحق أمام المحاكم.
- أتقاضى أرسين لوبين؟ إن ذلك ليكون أمراً غريباً
- كلا، بل سأقاضي الكريدي فرنسييه يجب أن يسلمني المليون.
- نظير تقديمك التذكرة، أو ما يثبت أنك اشتريتها على الأقل.
- إن الدليل موجود ما دام أرسين لوبين يعترف بأنه سرق المكتب وهل تكتفي المحاكم بكلمة أرسين لوبين؟
- لا يهمني هذا.. سأرفع الأمر إلى القضاء.

وهاج الجمهور، وعقدت المراهانات.. البعض يؤكد أن أرسين لوبين سيرغم مسيو جربوا، والبعض الآخر بأنه لن يستطيع تنفيذ تهديده وخامر الجميع إحساس بالخوف لأن القوتين كانتا غير متعادلتين، فإحداهما شديد الصراحة في هجومه والآخر شديد الخوف كطريدة مذعورة وتخاطف الناس جريدة إيكودي فرانس صباح يوم الجمعة، ولم يجدوا شيئاً في الصفحة الخامسة المخصصة للإعلانات.. ولا سطر واحد موجه إلى أر. لوب. رد مسيو جربوا بالصمت.

وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب وفي نفس المساء علموا من الجرائد بنبأ اختطاف الآنسة جربوا.

والممتع فيما يمكن أن ندعوه مغامرات أرسين لوبين هو الدور المضحك إلى حد الجنون الذي يقوم به البوليس، فكل شيء يحدث خارج نطاقه، فأرسين لوبين يكتب وينذر ويأمر ويهدد وينفذ كما لو أن مدير البوليس أو المفتشين أو رجال الشرطة لا وجود لهم وأخيراً لا أحد يعوقه في أغراضه.

ومع ذلك فإن رجال البوليس يكدون ويبذلون قصارى جهدهم.. فما أن يتعلق الأمر بأرسين لوبين حتى تمتلكهم الحمى ويستشيطون غضباً فهو العدو الذي يهزأ بهم ويسخر منهم ويتحداهم ويزدريهم، والأسوأ من كل ذلك يتجاهلهم.

وماذا يفعلون مع مثل هذا العدو، فقبيل الساعة العاشرة بعشرين دقيقة خرجت سوزان من البيت، وقد شهدت الخادمة بذلك.. وعندما خرج أبوها من الجامعة في العاشرة وخمس دقائق لم يرها على الرصيف المقابل حيث اعتادت أن تنتظره كل شيء إذن لقد حدث الاختطاف في فترة العشرين دقيقة التي قضتها سوزان في السير من البيت إلى الجامعة.

أكد اثنان من الجيران أنهما التقيا بها على بعد ثلاثمائة خطوة من البيت وقالت سيدة أنها رأت فتاة تطابق أوصافها في عرض الطريق ولم يعرف أحد شيئاً بعد ذلك.

وامتد التحقيق إلى كل مكان واستجوبوا موظفي المحطات ومراكز رسم المرور.. لم ير أحد منهم في ذلك اليوم شيئاً يمكن أن يكون له علاقة باختطاف الفتاة، ومع ذلك فقد صرح أحد البدالين بقرية فيل دافرى أنه باع بنزيناً لسيارة مقفلة قادمة من باريس يقودها سائق وبداخلها سيدة شقراء، وبعد ساعة من ذلك عادت السيارة من فرساي وتوقفت لحظة بسبب الزحام، الأمر الذي أتاح له أن يرى بجوار المرأة الشقراء التي سبق أن رآها سيدة أخرى تضع حول رأسها شالاً وعلى وجهها قناعاً، ولم يكن هناك أي ريب أنها هي سوزان جربوا.. لكن إن دل ذلك على فإنما يدل على أن الاختطاف وقع في وضح النهار، وفي طريق شديد الازدحام وفي وسط المدينة بالذات.

- -كيف؟... وفي أي مكان؟ كيف لم يسمع أحد أية صرخة ولم ير أحد ما يريب.

وأعطى البدال أوصاف السيارة، ليموزين ٢٤ حصان موديل يوجون ذات لون أزرق داكن، ودلت التحريات على أن صاحبة أحد الجاراجات أجرت في ذلك اليوم سيارة ليموزين من طراز بوجون إلى سيدة شقراء، وأنها لم ترها بعد ذلك.

- السائق؟

– رجل اسمه أرنست التحق بالعمل أمس بعد أن قدم شهادات طبية.

– أهو هنا؟

– كلا.. إنه أعاد السيارة ولم يعد بعد ذلك.

– هل يمكن الاهتداء إلى أثره.

– طبعاً بالرجوع إلى الأشخاص الذين زودوه بتلك الشهادات ومضوا إلى أولئك الأشخاص، ولكن لم يعرف أحد منهم المدعو أرنست.

ولم يكن مسيو جربوا من القوة بحيث يصمد في معركة بدأت بهذه الطريقة المفجعة، فقد هده الحزن منذ اختفاء ابنته وعذبه الندم ولم يجد بدا من الخضوع.

وظهر إعلان صغير بجريدة إيكودي فرانس علق عليه الجميع، وأكد استسلامه بدون قيد أو شرط.

وهكذا انتصر أرسين لوبين وانتهت المعركة بعد أربعة أيام.

وبعد يومين تقدم مسيو جربوا إلى مدير بنك الكريدي فرنسيه وأعطاه ورقة اليانصيب رقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣ فدهش المدير

وقال :

- آه.. أهي معك؟ هل أعيدت إليك؟

أجابه مسيو جربوا :

- كانت ضائعة وقد وجدتها.
- ولكنك زعمت.. قلت أن..
- كل ذلك لم يكن إلا أكاذيب
- ومع ذلك فلا بد لنا من مستند يدعم صحة ادعائك
- هل يكفي خطاب القومندان؟
- بكل تأكيد.
- ها هو.
- حسناً.
- ضعهما إذن في قسم الأمانات، فلا بد لنا من أسبوعين للتحقق سأخطرك متى يجب أن تتقدم إلى الخزينة، وأرى من مصلحتك أن ألا تقول شيئاً وأن تنتهي هذه المسألة في صمت مطبق.
- هذه نيتي.

لم يتكلم جربوا، وكذلك لم يتكلم مدير البنك، ولكن هناك أسرار

تتكشف دون أن يقع أي فضول وعلم الناس بعد ذلك أن أرسين لوبين تجرأ وأرسل التذكرة رقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣ إلى مسيو جربوا وقوبل النبأ بإعجاب مذهل فقد دل ذلك على أن أرسين لوبين مقامر جريء بتخيله عن تلك التذكرة النفسية، والواقع أنه تخلى عنها وفي يده ورقة أخرى رابحة تجدد التوازن، ولكن ماذا لو هربت الفتاة؟

أو أفلح البوليس في إنقاذها؟

أدرك البوليس نقطة الضعف في العدو وضاعف جهوده، فإنه إذا عثر على الفتاة يجرد أرسين لوبين من سلاحه فلا يستطيع أن يحصل على صلدي واحد من المليون فرنك.. وبذلك يصبح هدفاً سخرية الجميع.

ولكن كان لا بد من العثور على سوزان وهم لم يعثروا عليها وكذلك لم تهرب..

وقيل :

ليكن لقد ربح أرسين لوبين الجولة الأولى ولكن الجولة الثانية ستكون من أشق الأمور أن الآنسة جربوا بين يديه ، ونحن نعترف بذلك ولن يعيدها إلا مقابل الخمسمائة ألف فرنك ولكن أين ومتى ستتم عملية الاستبدال فلكي يتم هذا الاستبدال فلا بد من اللقاء وعندئذ ما الذي يمنع مسيو جربوا من إبلاغ البوليس وبذلك يسترد

ابنته ويحتفظ بالمليون كله.

وسألوا الأستاذ وكان مكدوراً جداً، وعازفاً عن الكلام، وقال : ليس لدي ما أقول إنني أنتظر.

- والآنسة جربوا.
- إن الأبحاث مستمرة.
- ولكن أرسين لوبين كتب لك.
- كلا.
- هل تؤكد ذلك؟
- كلا
- إذن فقد كتب لك.. ما هي تعليماته؟
- ليس لدي ما أقول.

وحاصروا الأستاذ دتنيان، ولكنه تمسك بالصمت هو الآخر وقال وهو يتظاهر بالهدوء التام :

- إن مسيو لوبين موكلي ولعلكم تفهمون أن ذلك يقتضيني الكتمان.

كل هذا الغموض قد أهاج الجميع لم يكن هناك شك في أن خططا

تدور في الخفاء وأن أرسين لوبين يخطط ويحكم خيوط شباكه من حين أن البوليس كان يقوم بمراقبة حركات مسيو جربوا ليلاً ونهاراً والناس ينتظرون النتائج الثلاثة المحتملة وهي إما القبض على أرسين لوبين وإما انتصاره وإما الهزيمة المنكرة والساخرة.

ولكن الحقيقة أن فضولهم لم يكن مرضياً إلا جزيئاً، وعلى هذه الصفحات ولأول مرة اكتشف الحقيقة كلها حول هذه المسألة.

في يوم الثلاثاء ١٢ مارس تلقى مسيو جربوا من بنك الكريدي فرنسيه إخطاراً عادياً في مظهره، وفي الساعة الواحدة من يوم الخميس استقل القطار إلى باريس وفي الساعة الثانية تسلم ألف من أوراق البنكنوت كل منها بألف فرنك.

وبينما كان يحصيها وهو يرتعش.. أفلم تكن هذه النقود فدية سوزان؟

كابوسين إلى اليسار، وكان يشى على مهل ويتأمل واجهات المحلات وقال جانيمار:

- إن صاحبنا هادى جدا أن رجلا فى جيبه مليونا من الفرنكات.. لا يكون بمثل هذا الهدوء.
- وكان يمكنه أن يفعل؟

- لا شيء طبعا، ولست أعبأ بما قد يفعل، ولكن لوبين هو لوبين وفى هذه اللحظة مضى مسيو جربوا إلى أحد الأكشاك، وابتاع بعض الجرائد، واسترد الباقى ثم نشر إحداها وراح يقرأ وهوباسط ذراعية ويمشى على مهله، وفجأة وثب إلى سيارة تنتظر بجوار الرصيف وكان المحرك دائرا فانطلقت مسرعة، وسلكت شارع مادلين ثم اختفت وصاح جانيمار:
- يا للشيطان! لعبة أخرى من ألاعيبه.

وانطلق، وأسرع رجال آخرون فى نفس الوقت نحو شارع مادلين، ولكنه لم يلبث أن انفجر بالضحك فقد رأى السيارة واقفة فى أول شارع مالرب وقد أصابها عطل، ومسيو جربوا يهبط منها.

- أسرع يا فولتفان، عليك بالسائق فلعله المدعو أرنست.

واهتم فولتفان بالسائق كان يدعى جاستون ويعمل بإحدى شركات سيارات الأجرة. وقال إن رجلا استوقفه قبل ذلك بعشر دقائق وأمره بالانتظار قسرا بجوار الكشك حتى يأتى رجل آخر.. ويسأله فولتفان:

وما هو العنوان الذى ذكره لك الرجل الثانى؟

- أمرنى بالانطلاق إلى شارع مالرب ثم شارع ميسين، ووعدني

ببقشش كبير. وهذا كل شيء.

وفى أثناء ذلك وبدون إضاعة دقيقة أخرى كان مسيو جربوا قد وثب إلى أول سيارة مرت به وقال للسائق إلى محطة ترام الكونكورد.

وخرج الاستان من المترو فى ميدان باليه رويال وأسرع إلي سيارة أخرى وطلب من السائق أن يمضى به إلى ميدان البورصة ثم رحلة أخرى الى المترو فشارع دى فيليه، وسيارة ثالثة، وقال السائق:

- امض بى إلى رقم ٢٥ شارع كلابيرون.

ورقم ٢٥ بشارع كلابيرون يفصله عن شارع باتيول البيت القائم فى ناصيته وصعد إلى الطابق الأول ودق الجرس وقال للرجل الذى فتح له:

أهنا يقطن الاستان دتنيان.

- أنا هو.. مسيو جربوا دون ديب؟
- نعم.
- كنت فى انتظارك، تفضل.

***

عندما دخل مسيو جربوا إلى مكتب المحامى كانت الساعة تدق

الثالثة. فقال:

– هذا هو الموعد الذى حدده لى، ألم يصل بعد.

– لم يأت بعد.

جلس مسيو جربوا، وجفف جبينه وأخرج ساعته كما لوكان لا يعرف الوقت، وعاد يقول فى قلق:

– هل سيأتى؟

أجابه المحامى:

– أنت تسألنى يا سيدى عن الشىء الوحيد الذى أشعر بفضول كبير لمعرفته لم أشعر أبداً بمثل هذه اللهفة، وعلى كل حال فإنه يجازف كثيرا بحضوره، فهذا البيت محاصر تماما منذ خمسة عشر يوما.. فالبوليس يرتاب فيه.

ويرتاب فى أنا أكثر ولهذا لست متأكدا من أن الرجال الذين كلفوا بمراقبتى قد قفوا أثرى.

– وإذن؟

صاح مسيو جربوا على الفور:

– لو أن هذا حدث فليست الغلطة غلطتى.. ولا يمكن أن يلومنى

أحد فقد وعدت أن أطيع أوامره قد أطعتها بكل دقة تسلمت النقود فى الساعة التي حددها وأتيت إليك متبعا الطريقة التى رسمها لى، وبصفتي مسئولا عما حل بابنتى فقد وفيت بما وعدت بكل إخلاص، وعليه هوأن يوفى بما وعد به الآن.

ثم أردف فى صوت يتهدج من القلق:

– إنه سيأتينى بابنتي، أليس كذلك؟

– أرجو هذا؟

– ولكن.. ألم تره؟

– أنا؟.. كلا. كل ما فعل أنه طلب منى فى خطاب أرسله إلي أن أستقبلكما معا، وأن أصرف خدمى قبل الساعة الثالثة ، وألا أدع أحدا يدخل مكتبى فى الفترة بين مجيئك وانصرافه.. وأننى إن لم أقبل هذا العرض فإنه يرجونى أن أخطره بذلك بإعلان فى جريدة أيكودى فرانس ولكننى سعيد جدا إذ أقدم خدمة لأرسين لوبين وقد وافقت على كل ما طلب.

تأوه مسيو جربوا وقال:

– آه كيف سينتهى كل هذا؟

واخرج الأوراق المالية من جيبه وألقاها فوق المكتب، وقسمها قسمين متساويين ولزم الرجلان الصمت ، وكان مسيو جربوا يرهف أذنيه من لحظة لأخرى، ويسأل إن كان الجرس لم يرن وازداد قلقه مع مرور الوقت. وكان الأستاذ دتنيان يعانى من نفس الشعور المقلق بل إنه فقد جأشه فجأة وقال وهو ينهض.

– لن يأتى وكيف تريد أن يأتي؟ سيكون ذلك جنونا من ناحيته. إن فى مقدوره أن يثق بنا فنحن رجلان شريفان لا يمكن أن نغدر به ولكن الخطر ليس هنا فحسب.

وانهار مسيو جربوا ووضع يديه فوق الأوراق المالية وتمتم.

– فليأت بحق الله فليأت سأعطيه كل هذا مقابل سوزان.

انفتخ الباب فى هذه اللحظة وقال صوت

– بل يكفينى النصف يا مسيو جربوا.

***

كان هناك رجل يقف بالباب.. شاب أنيق الملبس، عرف فيه مسيو جربوا على الفور ذلك الذى اعترضه بجوار محل الأشياء القديمة فى فرساى فوثب نحوه وقال:

– وسوزان؟.. أين ابنتى؟

أغلق أرسين لوبين الباب خلفه فى عناية وقال مخاطبا المحامى وهو يخلع قفازه:

– لن أعرف يا أستاذى العزيز كيف أوفيك حقك من الشكر لقبولك الدفاع عن حقوقى.. لن أنسى ذلك أبدا

تمتم الأستاذ دتنيان.. ولكنك لم تقرع الجرس.. ولم أسمع الباب.

– إن الأجراس والأبواب يمكن أن تؤدى دورها من غير أن يسمعها أحد أبدا والمهم هوأننا هنا مع ذلك.

عاد الأستاذ يسأل: وابتنى.. سوزان؟ ماذا فعلت بها؟

قال لوبين:

– يا إلهى.. ما أشد تعجلك.. ولكن اطمئن لن تمرلحظة أخرى حتى تكون ابنتك بين ذراعيك.

وراح يتمشى فى الغرفة ثم قال بلهجة مولى كبيريوزع الثناء والمديح:

– إننى أهنئك يا مسيو جربوا على البراعة التى أبديتها منذ قليل.. لو أن السيارة لم تصب بذلك العطل الأحمق لالتقينا بكل بساطة فى مقهي الإتوال، ولوفرنا على الأستاذ دنتيان مؤونة زيارتنا.

واستطرد وهو يرى الأوراق المالية:

– آه.. حسنا.. المليون هنا.

لن نضيع الوقت إذن هل تسمح؟

قال الأستاذ دنتيان وهو يعترض طريقه ويقف أمام المكتب ولكن لم تأت، الآنسة جربوا بعد وبعد؟

– أليس وجودها أمرا حتميا؟

– آه.. فهمت. إن أرسين لوبين لا يوحي بثقة تامة سيستولى على نصف المليون ولا يرد الرهينة.. آه إن الجميع يسيئون فهمى ويرتابون فى حسن نوايای لا لشيء إلا لأن مصيرى قادني إلى أعمال مشبوهة بعض الشيء فى حين أننى رجل شريف ورقيق.. ولكن إذا كنت خائفا يا أستاذى العزيز فافتح نافذتك واصرخ فهناك اثنا عشر من رجال الشرطة فى الخارج هل تظن ذلك؟

رفع أرسين لوبين الستارة وقال:

– أظن أن مسيو جربوا لم يستطع أن يضلل جانيمار. ماذ قلت لك. ها هوذلك الصديق المغوار.

صاح الأستاذ.

– أهذا ممكن.. أقسم لك مع ذلك.

– إنك لم تغدر بى أبدا؟.. إننى لا أشك قى ذلك. ولكن أصحابنا أذكياء جدا.. انظر.. هذا هو فولتفان.. وجر يوم وديزونى وجميع الزملاء الأعزاء.

نظر الأستاذ دتنيان إليه فى ذهول وقد أدهشه هدوء لوبين.. كان يضحك ضحكة مرحة كما لوأنه طفل تروق له لعبة محببة إليه ولا يحدق به أى خطر.

طمأنه هدوء لوبين أكثر من رؤيته لرجال البوليس فابتعد عن المكتب.

حيث الأوراق المالية وتناول أسين لوبين الرزمتين واستخلص من كل منهما خمسا وعشرين ورقة وقدم الخمسين للأستاذ دتنيان وهويقول:

– نصيب مسيو جربوا ونصيبى من أتعابك فنحن ندين لك بهذا تماما.

قال الأستاذ دتنيان:

– أنتما لا تدينان لى بشىء.

– كيف هذا؟ وكل الإزعاج الذى تسببنا لك فيه.

– بل كل الاستمتاع الذى تسببتما فيه.

– معنى ذلك يا أستاذى العزيز أنك لا تريد أن تقبل شيئا من أرسين لوبين؟

وتنهد وأردف:

– هذا جزاء السمعة السيئة.

وقدم الخمسين ألفا لمسيو جربوا وهو يقول:

اسمح لى أن أقدم لك هذا المبلغ ذكرى للقائنا ثم إنه هدية الزواج من قبلي للآنسة جربوا.

أسرع مسيو جربوا وأخذ الأوراق ولكنه قال:

– إن ابنتي لن تتزوج.

– إنها لن تتزوج إذا أنت رفضت أن تمنحها موافقتك ولكنها تصبو إلى الزواج.

– وما أدراك؟

إنني أعرف أن الفتيات يطمن بذلك أحيانا بدون موافقة آبائهن، ولحسن الحظ أن هناك جنيا يدعي أرسين لوبين، وأن هذا الجنى اكتشف سر هذه الفتاة الرقيقة فى أدراج المكتب.

سأله سميو دتنيان:

– ألم تجد فيه شيئا آخر؟ أعترف أن الفضول يدفعنى بمعرفة سر اهتمامك بذلك المكتب.

– سبب تاريخى يا أستاذى العزيز فعلى عكس ما يظن مسيو جربوا فإنه لا يحتوى على أى كنز اخر فيما عدا ورقة اليانصيب وهو أمر كنت أجهله. كنت أتمسك بذلك المكتب وأبحث عنه منذ وقت طويل.. فهومصنوع من خشب نادر ونفيس ومزخرف بنبات الافتنة، وقد تم العثور عليه فى البيت المتواضع الذى كانت مارى فالفسكا تسكنه ومحفور على أدراجه هدية إلى نابليون بونابرت إمبراطور فرنسا من خادمه المخلص مانسيون وأهداه نابليون بعد ذلك إلى زوجته جوزفين.. أما المكتب الموجود فى المتحف والذى يشاهده الناس فما هو إلا تقليد متقن لذلك الذى أضمه الآن إلى مجموعتى من التحف.

تأوه الأستاذ وقال:

وأسفاه. لوأننى عرفت ذلك ونحن فى المحل لتنازلت عنه على الفور.

قال لوبين وهو يضحك:

– ولا حتفظت لنفسك فوق ذلك بورقة اليانصيب رقم ٥١٤ من المجموعة رقم ٢٣.

ولما اضطررت إلى أن تخطف ابنتي والتي عذبتها كثيرا.

عذبتها؟

- بهذا الاختطاف؟

- ولكنك مخطئ يا أستاذى العزيز، فأنا لم أختطف الآنسة جربوا.

- لم تخطف ابنتى؟

- أبدا من يتكلم عن الاختطاف إنما يتكلم عن العنف فى حين أنها رضيت أن تكون رهينة عن طيب خاطر.

قال الأستاذ فى حيرة:

عن طيب خاطر.

وبناء على طلبها تقريبا كيف ترفض فتاة حادة الذكاء وعلى درجة كبيرة من الثقافة كالآنسة جربوا العمل على اكتساب دولتها؟.. أوه.. إنني أقسم لك أنها فهمت بكل سهولة إنه لم تكن هناك طريقة أخرى للتغلب على عنادك.

بدا على الأستاذ دنتيان الاضطراب مما يسمع، ولكنه اعترض قائلا:

- كان أصعب شيء هو التفاهم معها طبعا، فليس من المعقول أن تتيح لك التعامل معها بسهولة.

- أوه، لست أنا الذى كان له شرف التعامل معها، وإنما هى إحدى صديقاتى، أوفدتها إليها و..

قاطعه الأستاذ دتنيان:

– لا ريب أنك تعنى السيدة الشقراء؟

هو ذلك وتم الاتفاق بينهما على كل شيء في أول لقاء لهما، أمام الكلية. ومنذ ذلك اليوم والآنسة جربوا تنتقل بين بليجيكا وهولندا برفقة صديقتها الجديدة وتستمع بما تشاهده كأى فتاة أخرى تقضى أجازة سعيدة ثم إنها ستحدثك هى نفسها بكل ذلك.

وفى تلك اللحظة دق جرس الباب الخارجى ثلاث مرات سريعة ثم مرتين متتابعتين فقال لوبين:

– إنها هي هل فتحت الباب يا أستاذى العزيز؟

وأسرع المحامى.

***

دخلت امرأتان، ارتمت إحداهما بين ذراعي مسيو جوبوا أما الأخرى فقد اقتربت من لوبين. وكانت طويلة القامة ممشوقة القوام.. شعرها أشقر ساحر ينقسم إلى عصايتين متموجتين ومتهدلتين وترتدى فستانا أسود ولا تتزين بشيء آخر غير عقد من الشيب من أربع دوائر، وتبدوغاية فى الأناقة.

وقال لها أرسين لوبين بضع كلمات ثم حيا الآنسة جربوا قائلا.

– أرجو أن تغفرى لى ما سببته لك من إزعاج يا آنسة، كما أرجو أن تكونى قد استمتعت برحلتك.

– إزعاج؟.. بل إنني ما كنت أشعر إلا بالسعادة لو لم يكن هناك أبى المسكين.

– كل شىء على ما يرام إذن.. قبليه ثانية وانتهزى هذه الفرصة السعيدة وحديثه عن ابن عمك.

– ابن عمى؟.. ما معنى ذلك؟.. إننى لا أفهم.

– بل تفهمينى تماما.. ابن عمك فيليب.. ذلك الشاب الذى تحتفظين برسائلة بكل شغف.

اصطبغ وجه سوزان، وفقدت هدوءها أخيرا، وارتمت من جديد بين زراعى أبيها كما نصحها لوبين وتأملها هذا الأخير فى حنو وقال:

– هذا أحسن جزاء أتلقاه.. ياله من منظر مؤثر ويا للأب السعيد.

ويا للفتاة السعيدة.. وهذه السعادة من صنعى أنا؟ سيشكرك هذان الشخصان فيما بعد وسيرددان اسمك على أحفادهما.. أوه.. يالها من أسرة سعيدة.

ثم اتجة إلى النافذة وقال:

ألا يزال العزيز جانيمار هنا؟..

ربما راق له أن يشهد هذا المنظر المؤثر.. ولكن لا.. إنه ليس هنا.. لم يعد هناك أحد.. لاهو ولا آخرون.. يا للشيطان! إن الموقف أصبح جد خطير ولا يدهشنى أن يكونوا قد دخلوا البيت الآن.. ربما يتحدثون مع البواب، أو لعلهم يصعدون السلم.

بدأ مسيو جربوا يتحرك، فالآن وقد أعيدت إليه ابنته عاوده الإحساس بالواقع، فإن القبض على غريمه معناه استعادة النصف مليون.. وتقدم خطوة، كأنما عفو الخاطر.. ولكن لوبين اعترض طريقه وقال:

– إلى أين يا مسيو جربوا هل تنوى أن تدافع عنى ضد البوليس؟ هذه مكرمة كبيرة منك ولكن لا تزعج نفسك.. ثم إننى أقسم لك أنهم أكثرمنى ارتباكا واضطرابا.

– واستطرد يقول وهو يفكر:

– فماذا يعرفون في الواقع.. إنك موجود هنا، وان ابنتك موجودة هى الأخرى لأنهم لاريب رأوها تدخل مع امرأة غريبة ولكن أنا؟. إنهم واثقون إنني غير موجود إذا كيف أدخل بيتا فتشوا كل ركن فيه

هذا الصباح كل طبقا لكل الاحتمالات فهم ينتظروننى لإلقاء القبض على يا للمساكين الأعزاء هذا مالم يخطر على بالهم أننى أرفدت السيدة المجهولة لكى تقوم بإجراء المبادلة، وفى هذه الحالة فهم يتأهبون لإلقاء.. القبض عليها عند انصرافها.

ودق جرس الباب فى هذه اللحظة.

وبحركة سريعة أوقف لوبين مسيو جربوا وقال فى صوت صارم:

– مكانك يا سيدى. فكر فى ابنتك والزم جادة العقل وإلا.. أما أنت يا أستاذ دتنيان فأرجو أن تكون عند وعدك لى.

وتجمد مسيو جربوا مكانه، ولم يتحرك المحامي.

وأخذ لوبين قبعته بدون أي استعجال، ونفض ما طيها من غبار بكم يده ثم قال:

– إذا حدث واحتجت إلى يا أستاذى العزيز.. كل تمنياتى لك يا آنسة سوزان، وكل تحياتى لمسيو فيليب.

وأخرج من جيبه ساعة ضخمة فى علبة من الذهب وقال:

– الساعة الآن الثالثة والدقيقة الثانية والأربعون يا مسيو جربوا وإنى أسمح لك أن تغادر هذه الغرفة فى الساعة الثالثة والدقيقة

السادسة والأربعين ولكن حذار أن تغادرها ولو قبل ذلك بدقيقة.

ولم يسع الأستاذ دتنيان إلا أن يقول:

– ولكنهم سيقتحمون الباب!

– وهل نسيت القانون يا أستاذى العزيز؟ لن يجرؤ جانيمار أبدا على اقتحام بيت مواطن فرنسى إن أمامنا الوقت للعب البريدج لوأردت ولكن اغفر لى فيبدو لى أنكم على شىء من الاضطراب والانفعال أنتم الثلاثة ولا أريد أن أستغل وقتكم.

ووضع ساعته فوق المكتب وفتح باب الصالون وخاطب السيدة الشقراء.. قائلا:

هل أنت مستعدة أيتها الصديقة العزيزة؟

وأفسح لها الطريق وألقى تحية أخيرة مجاملة للآنسة جربوا ثم خرج وأغلق الباب خلفه.

وسمعوه يقول فى البهو بصوت مسموع:

صباح الخيريا جانيمار. كيف حالك، تحياتي إلى مدام جانيمار سأزورها ذات يوم لتناول الغداء..

وداعا يا جانيمار.

ودق الجرس مرة أخرى. فى عنف هذه المرة، ثم مرات متكررة، وتناهت إلى الأسماع أصوات صاخبة وتمتم مسيو جربوا.

– الساعة الثالثة وخمس وأربعون دقيقة.

وبعد ثوان من التردد استقرعزمه فمضى إلى البهو، ولم يكن هناك أثر للوبين أو للسيدة الشقراء.

وصاحت سوزان:

– أبى.. لا يجب.. انتظر.

– انتظر.. هل جننت؟ أجامل هذا الوغد.. والنصف مليون.

وفتح الباب، فاندفع جانيماز إلى الداخل وهويقول:

– تلك السيدة.. أين هى؟ ولوبين؟

– كان هنا.. بل هو هنا.

أطلق جانيمار صيحة انتصار وقال:

لقد تمكنا منه.. إن البيت محاصر.

وقال الأستاذ دتنيان معترضا:

ولكن لعله استخدم سلم الخدم.

إن سلم الخدم يؤدى إلى الفناء. والفناء يؤدى إلى الباب العمومى.

وهناك عشرة رجال ينتظرون.

ولكنه لم يدخل من الباب العمومى.. ولن يغادر البيت منه.

فقال جانيمار:

– ومن أين تريد أن يخرج؟

وأزاح الستار ورأى أمامه طرقة طويلة تؤدى إلى المطبخ فتبعها مسرعا وتحقق من أن باب المطبخ موصد من الداخل بالمزلاج.

ونادى أحد رجاله من النافذة وسأله:

– هل رأيت أحدا؟

– لا أحد.

فصاح.

هما فى الشقة اذن مختبئان فى إحدى الغرف فمن المستحيل ماديا أن يكونا قد أفلتا.. آه.. آه أيها العزيز لوبين طالعا سخرت منى ولكننى سأنتقم الأن.

وفى الساعة السابعة من مساء اليوم دهش مسيو ديدوا، رئيس البوليس إذا لم يسمع أيه أنباء فمضى إلى شارع كلا بيدعن وسأل رجال الشرطه الذين يحرسون البيت ثم صعد إلى مكتب الأستاذ دتنيان،

وهناك رأى رجلا أو بالحرى ساقين متدليين فوق السجاده بينما الجسد محشور في المدخنة فقال وهو يضحك.

– ماذا تفعل داخل المدفاة يا جانيمار؟

خرج المفتش من المدخنة وقد اسود وجهه واتسخت ثيابه وعيناه تلمعان من الحمى وبدا شكله بعيدا عن المألوف وقال متذمرا.

– إننى أبحث عنه.

– من هو؟

– عن أرسين لوبين – أرسين لوبين وصديقته.

– آه، وهل خطر ببالك أنهما يختبئان فى مواسير المدخنة؟

نهض جانيمار ووضع خمسة أصابع بلون الفحم على زراع رئيسه وقال مختنقا وفى صوت أصم:

– وأين تريد أن يكونا أيها الرئيس؟ يجب أن يكونا فى مكان ما.

إنهما مخلوقان، مثلى ومثلك من لحم ودم وهما لم يتبخرا فى الهواء.

– هذا صحيح ولكنهما اختفيا مع ذلك.

– أين أين.. إن البيت محاصر وهناك شرطة فوق السطوح.

– والبيت المجاور؟

- ليس متصلا بهذا البيت.
- ومساكن الطوابق الأخرى؟
- إننى أعرف كل السكان. لم يروا أحدا ولم يسمعوا أحدا.
- هل أنت واثق من أنك تعرفهم جميعاً؟
- إن البواب يضمنهم ثم إننى زيادة فى الحرص أقمت أمام كل مسكن واحد، من رجالى.
- ومع ذلك فيجب أن تلقي القبض عليهما.
- هذا ما أقول يا سيدى الرئيس.. هذا ما أقول.. هذا ما يجب أن يكون وما سوف يكون لأنهما هنا ولا يمكن أن يكونا فى مكان آخر، اطمئن أيها الرئيس إذا لم ألق القبض عليهما هذه الليلة لسوف يكون ذلك غدا إننى سأبيت هنا.. سأبيت هنا.

وبات ليلته فى البيت فعلا. واليوم التالى كذلك. واليوم الذى تلاه أيضا. وعندما مرت ثلاثة أيام كاملة وثلاث ليالي لم يكتشف لوبين ولا صديقته فحسب وإنما لم يهتد إلى أى أثر يتيح له إقامه أية نظرية.

ولهذا لم يتغير رأيه عن الساعة الأولى أبدا.

- طالما أنه ليس هناك ما يدل على أنهما هربا فلابد أنهما لا يزالان

هنا ولعله فى أعماق ضميره ولم يكن مقتنعا بذلك ولكنه لم يشأ أن يقر بالحقيقة كلا وألف مرة كلا.. إن رجلا وامرأة لا يمكن أن يتبخرا هكذا كما لو أنهما من الجن واستمر فى أبحاثه دون أن يفقد شجاعته كما لو أنه كان يرجو أن يجدهما مختبئين فى مكان غير مطروق أو أنهما اندمجا فى أحجار البيت.

***

٢ الماسة الزرقاء

كان البارون دوتريك، السفير الفرنسى السابق بأطانيا راقدا فى مساء اليوم السابع والعشرين من شهر مارس فى البيت رقم ١٣٤ بشارع هنرى مارتن الذى ورثه عن أخيه قبل ذلك بسنة شهود .

وكان يغامر فى هدوء وهو جالس بمقعده الكبير فى حين راحت وصيفته تقرأ له فى صوت مرتفع والأخت أوجست تعد له الفراش.

وكانت الأخت أوجست قد عقدت النية على العودة إلى الدير على غير عادتها وقضاء الليل مع الرئيسة، وقالت:

– إننى فرغت من عملى يا آنسة انطوانيت وسأنصرف الآن.

– حسنا أيتها الأخت.

– لا تنس إن الطاهية فى أجازة وإنك وحدك في البيت مع الخادم.

– اطمئني على البارون. فإننى سأرقد فى الغرفة المجاورة كما هو

اتفقنا وسأترك بابى مفتوحا.

وانصرفت الأخت، وبعد لحظة أقبل الخادم لتلقى أوامره. وكان البارون قد استيقظ فخاطبه قائلا:

– نفس الشيء يا شارل تحقق أن الجرس الكهربى يعمل فى غرفتك وأس[illegible] لاستدعاء الطبيب.

[illegible]شديد القلق دائما.

[illegible] على ما يرام.. والآن يا آنسه أنطوانيت إلى أين وصلنا؟

– ألن تأوى إلى الفراش إذن يا سيدى البارون.

– كلا إنني لن أنام على الفور ثم إننى لست بحاجة إلى أحد ولكن النوم غلبه بعد عشرين دقيقة، وانصرفت أنطوانيت على طرفى قدميها. وفي تلك اللحظة كان شارل يوصد كل النوافذ فى الطابق الأرضى ووضع المزلاج فى باب مطبخ يفضى إلى الحديقة لزياده فى الحرص وضع سلسله الأمان ثم عاد إلى غرفته فى الطابق الثالث وأوى إلى فراشه.

غير أنه وثب منه بعد حوالى ساعة على صليل الجرس الكهربى الذي استمر نحو سبع أو ثمانى ثوان بدون انقطاع وقال وهو يسترد وعيه حسنا نزوة أخرى من نزوات البارون.

وارتدى ثيابه على عجل وهبط الدرج وتوقف أمام الباب، وطرقه ولكن لم يرد عليه أحد فدخل وهو يقول:

هذا عجيب إن الغرفه مظلمة فلماذا أطفئ النور بحق الشيطان.

وصاح بصوت مرتفع:

يا آنسة انطوانيت.

ولكن ما من مجيب وعاد يقول:

أين أنت يا آنسة أنطوايت؟.. وماذا حدث هل سيدى البارون مريض. أحاطه نفس الصمت.. صمت ثقيل بدأ يقلقه فتقدم خطوتين واصطدمت قدمه بمقعد وأدرك أنه مقلوب والتقت يده على الفور بأشياء أخرى على الأرض منضدة صغيرة وحاجز وازداد قلقه فعاد نحوالجدار متحسسا وبحث عن مفتاح النور وأداره.

رأى جثة سيده البارون دوتريك وسط الغرفة بين المنضدة والدولاب فقال متعلثما:

كيف هذا؟.. أهذا ممكن؟

لم يدر ماذا يفعل، وراح يتأمل بعينين متسعتين وفى ذهول ومن غير أن يتحرك الأشياء المقلوبة والشمعدان والكريستال الكبير لكنه محطم

وشظاياه تملأ المكان والساعة ملقاة على رخام المدفأه وكل ذلك ينبئ عن وقوع معركة عنيفة وضارية ومقبض خنجر يلمع على مقربة من الجثه وقد تلوث بالدم وفوق الفراش منديل ملوث هو الآخر بالدم.

وصرخ رعبا وهو يرى الجثة تتوتر فى بهو أخير وتهتز مرتين أو ثلاث ثم تتجمد وانحنى فوقها كان الدم ينبثق من جرح فى العنق ووجه البارون ينم عن رعب شديد وتمتم:

– لقد قتلوه.. قتلوه..

وسرت فى بدنه الرعشة وقد خطر له وقوع جريمة أخرى، أفلا ترقد الوصيفة فى الغرفة المجاورة أو لم يقتلها القاتل هى الأخرى؟

ودفع الباب ولكن الغرفة كانت خالية واستنتج أن أنطوانيت ربما اختطفت أو انصرفت قبل وقوع الجريمة.

وعاد إلى غرفة البارون ووقعت عيناه على المكتب ولاحظ أن أدراجه سليمة لم تغتصب بل أنه رأى سلسلة المفاتيح والمحفظة التى يضعها البارون على الطاولة بجوار الفراش كل ليلة وحفنة من الجنيهات الذهبية وأخذ شارلي المحفظة وفحصها كان بها بضعة أوراق مالية أحصاها فإذا بها ثلاث عشرة ورقة كل منها من فئة المائة فرانك.

وكان الإغراء قوياً عندئذ، فدس الأوراق المالية في جيبه بطريقة

إليه دون أن يفكر ثم هبط الدرج ورفع المزلاج وسلسلة الأمان وأغلق الباب وهرب عن طريق الحديقة.

***

كان شارل رجلاً أمينا، فما كاد يغلق الباب ويصفعه الهواء الطلق ويحس بالمطر على وجهه حتى بدا له العمل الإجرامي الذي أقدم عليه على حقيقته، وأحس بهلع مفاجئ.

ومرت به مركبة فنادى صاحبها وقال له:

– أسرع إلى مركز البوليس يا صاحبي وعد بالقوميسير.. أسرع، فقد وقعت جريمه قتل.

ساط الحوزي جواده ولكنه عندما أراد شارل العودة إلى الداخل لم يستطع فقد أغلق الباب بنفسه وهو لا يفتح من الخارج ومن ناحية أخرى لم تكن هناك جدوى من دق الجرس فلم يكن بالبيت أحد فراح يمشي على الرصيف ولم يستطع أن يروي للقوميسير ما حدث إلا بعد ساعة من الانتظار وأن يسلمه الأوراق الثلاث عشرة.

وفي أثناء ذلك جاءوا بأحد الحدادين وأفلح هذا الأخير بمشقة كبيرة من فتح باب الحديقة والباب الخارجي وصعد القوميسير، وما كاد يلقى نظرة حتى قال للخادم.

– آه، ألم تقل أن الغرفة في حالة كبيرة من الفوضى؟

وقف الخادم مشدوها فكل المفروشات كانت هي مكانها الطبيعي فالمنضدة الصغيرة في مكانها العادي وشظايا الشمعدان اختفت وقال وهو في منتهى الذهول:

– والجثة.. سيدي البارون!

صاح القوميسير:

– هذا صحيح.. أين القتيل؟

وتقدم نحو الفراش، ورفع الغطاء الكبير ووجد البارون دوتريك طريحاً فوق الفراش.. هادئ الوجه مطبق العينين.

تعلثم الخادم قائلا لقد دخل أحدهم.

– من أين؟

– لا أدري ولكن بعضهم دخل البيت أثناء غيابي.. انظر، كان هنا، فوق الأرض خنجر رفيع من الصلب، ومنديل ملوث بالدم فوق المنضدة، وهما ليسا هنا الآن.. لقد اختفى كل شيء، وأعيد ترتيب الغرفة.

– ولكن من الذي فعل ذلك؟

- القاتل.

- إننا وجدنا كل الأبواب مغلقة.

- معنى ذلك أنه بقى بالبيت.

- لابد أنه لا يزال موجوداً إذن مادمت لم تبتعد عن الرصيف.

فكر الخادم ثم قال في بطء:

هذا صحيح.. ولم أبتعد عن الباب... ومع ذلك.

- دعنا نرى الآن.. من آخر شخص رأيته مع البارون.

- الآنسة أنطوانيت.. الوصيفة.

- ماذا حدث لها؟

- تحققت من أن فراشها لم يمس، ولا ريب أنها انتهزت غياب الأخت أوجست لكي تخرج هي الأخرى، وهذا لا يدهشني كثيرا، فهي جميلة، وشابة..

- ولكن كيف خرجت؟

- من الباب.

- إنك وضعت المزلاج وسلسلة الأمان..

- لا ريب أنها غادرت البيت قبل ذلك.

- وبذلك تكون الجريمة قد وقعت بعد انصرافها.
- بالطبع.

وفتشوا البيت من أعلاه إلى أسفله ومخازن الحبوب والأقبية ولكن القاتل كان قد ولى الأدبار.. كيف؟.. وفي أية لحظة؟.. وهل هو الذي أعاد إلى الغرفة نظامها وأخفى كل ما يمكن أن يدل عليه أم أنه أحد شركائه؟ كانت هذه هي الأسئلة التي واجهها البوليس.

***

أقبل الطبيب الشرعي في الساعة السابعة، ثم رئيس البوليس في الساعة الثامنة، وبعدهما النائب العام وقاضي التحقيق. وازدحم البيت برجال الشرطة والصحفيين وابن أخ البارون دوتريك، وبعض أفراد أسرة القتيل.

وقاموا بتفتيش البيت بكل دقة، ودرسوا وضع الجثة طبقاً لأقوال شارلي واستجوبوا الأخت أوجست عندما أقبلت، ولكنهم لم يهتدوا إلى أي شيء آخر، بل إن الأخت أوجست استغربت اختفاء الآنسة أنطوانيت بريها، فهي التي ألحقت الفتاة بخدمة البارون قبل ذلك باثنى عشر يوما بناء على شهادات ممتازة، ورفضتا الفكرة القائلة بأنها تخلت عن المريض لكي تخرج وحدها بالليل.

وقال قاضي التحقيق:

– ثم إن المفروض أن تكون قد عادت أثناء ذلك.. وتعود عندئذ إلى نفس السؤال ماذا حدث لها؟

قال شارلي:

لعل القاتل اختطفها.

كانت النظرية معقولة، وتتفق مع بعض النقاط الظاهرة... وقال رئيس البوليس:

– اختطفت؟.. لعمري، إن هذا ليس ببعيد.

وقال صوت عندئذ:

– ليس هذا ببعيد فحسب، وإنما يتعارض مع وقائع نتائج التحقيق.

كان الصون خشناً وعنيفاً.. ولم تبد الدهشة على أي أحد عندما رأوا أمامهم جانيمار، فهو وحده الذي يغفرون له هذه الطريقة الخشنة في التعبير عن رأيه..وهتف مسيو ديدوا رئيس البوليس:

– آه.. أهذا أنت يا جنيمار؟.. لم أرك عندما أتيت.

– إنني هنا منذ ساعتين.

– إذن فأنت تهتم بأشياء أخرى غير ورقة اليانصيب رقم ٥١٤ من

المجموعة ٢٣، وقضية شارع كلابيردون... السيدة الشقراء وأرسين لوبين.

صاح المفتش العجوز:

– آه. آه.. لن أزعم أن لا دخل للوبين في هذه القضية التي تشغلنا الآن ولكن، لنترك ورقة اليانصيب جانبا حتى يستجد جديد، ولنهتم بالقضية التي أمامنا الآن.

***

وجانيمار ليس من رجال البوليس الذين يتمتعون بذكاء خارق والذين سيخلدهم التاريخ كدوبان وليكوك وشرلوك هولمز.. ولكن له مزايا متوسطة في الملاحظة والفطنة والمثابرة، وكذلك في الحدس والتخمين، وهو لا يتأثر بالبيروقراطية، ويعمل في حرية تامة ولولا الانفعال الذي يسببه له أرسين لوبين لما حفل بأي شيء أو اهتم به.

ومهما يكن فإن دوره في ذلك الصباح لم يكن ثانوياً.. وقد قدر قاضي التحقيق مساعدته لهم، إذا بدأ يقول:

– إنني أسأل السيد شارلي أن يوضح لنا هذه النقطة قبل كل شيء آخر هل كانت جميع الأشياء التي سبق أن رآها في المرة الأولى مقلوبة.. وفي غير أماكنها، هل كانت في أماكنها المعتادة عندما رآها في المرة الثانية؟

– نعم.

– من الواضح إذن أنها أعيدت مكانها بواسطة شخص كانت كل هذه الأشياء مألوفة له.

أثارت الملاحظة إعجاب الحاضرين، واستطرد جانيمار:

– سؤال آخر يا مسيو شارل.. تقول إن رئيس الحرس أيقظك، فمن الذي تظنه استدعاك؟

– سيدي البارون بالطبع.

– ليكن.. ولكن في أية لحظة؟

– بعد المعركة.. وهو مشرف على الموت.

– هذا مستحيل، ما دمت قد وجدته جثة هامدة، فاقد الشعور، في مكان يبعد عن مفتاح الجرس بنحو أربعة أمتار.

– إذن فقد دق الجرس أثناء المعركة.

– هذا مستحيل أيضاً ما دمت تقول إن الرنين ظل مستمراً نحو سبع أو ثماني ثوان دون انقطاع.. هل تظن أن القاتل يتركه يدق الجرس هكذا.

– إذن فقد دقة قبل ذلك، عندما هاجمه القاتل.

– هذا مستحيل، فقد قلت لنا إنه مر بين رنين الجرس ودخولك

الغرفة ثلاث دقائق على الأكثر.. وإذا كان قد دق الجرس قبل ذلك فمعنى هذا أن المعركة والقتل والاحتذار لم يستغرق أكثر من ثلاث دقائق، وأعود فأقول إن هذا مستحيل.

وقال قاضي التحقيق:

– ومع ذلك فقد دق أحدهم الجرس، وإذا لم يكن هو البارون فمن يكون؟

– القاتل

– وما غرضه من ذلك؟

– لا أدري.. ولكن يدلنا على أنه كان يعرف أن الجرس متصل بغرفة الخادم.. ومن يمكنه أن يعرف ذلك ما لم يكن شخصاً من البيت بالذات.

وضاقت حلقة الشبهات، وفي عبارات صريحة وواضحة ومنطقية، وضع جانيمار المسألة في وضعها الصحيح، واتضحت فكرة المفتش العجوز بحيث انتهى قاضي التحقيق إلى أن يقول:

– معنى ذلك أنك ترتاب في أنطوانيت بريها.

– لا أرتاب فيها فحسب وإنما اتهمها بأنها هي التي قتلت البارون دوتريك.

– وما دليلك؟

وعرض تلك الخصلة، وكانت شقراء ساطعة كأسلاك الذهب، وتعلثم شارلي:

– نعم. هذه الخصلة من شعر الآنسة أنطوانيت، وليس هناك أي خطأ.

وأردف يقول:

– ثم هناك شيء آخر. أظن أن الخنجر الذي لم أره في المرة الثانية خنجرها هي بالذات.. كانت تستخدمه في فصل صفحات الكتاب بعضها عن بعض.

وخيم صمت طويل، وبدا كأن الجريمة قد ازدادت فظاعة لأن امرأة ارتكبتها. وقال قاضي التحقيق:

– إذا فرضنا مؤقتاً أن أنطوانيت بريها قتلت البارون، فلابد أن تكتشف كيف خرجت بعد ارتكاب الجريمة وكيف عادت ثانية بعد خروج شارلي، ثم كيف خرجت من جديد قبل قدوم البوليس.. ألديك فكرة عن ذلك يا مسيو جانيمار؟

– أبداً.

وبدأ الارتباك على جانيمار، وقال أخيراً وهو يبذل جهدا ظاهراَ:

– كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني أجد في هذه الجريمة نفس الطريقة التي استخدمت في قضية ورقة اليانصيب رقم ٥١٤ من المجموعة ٢٣.. نفس الظاهرة التي يمكن أن ندعوها قدرة الاختفاء، فإن أنطوانيت بريها ظهرت ثم اختفت في هذا البيت بشكل غامض تماماً كما دخل أرسين لوبين مسكن الأستاذ دتنيان ثم خرج منه وبرفقته السيدة الشقراء.

– ومعنى هذا؟

– معناه أنه لا يسعني إلا أن أفكر في هاتين المصادفتين الغريبتين لقد ألحقت الأخت أوجست أنطوانيب بريها بخدمة البارون من اثني عشر يوماً، أي غداة اليوم الذي أفلتت فيه السيدة الشقراء من بين أصابعي والمصادفة الثانية هي أن شعر السيدة الشقراء له نفس اللون الأشقر الشديد الشبه للشعر الذي وجدناه هنا.

– بحيث إنك تظن أن أنطوانيت بريها.

– هي السيدة الشقراء بعينها.

– وأن لوبين هو الذي دبر هاتين الجريمتين؟

– هو ذلك

انفجر رئيس البوليس ضاحكاً وقال في طرب

– لوبين.. دائماً لوبين.. إن لوبين في كل مكان.

صاح جانيمار محتقناً

– إنه يكون حيث يكون.

وقال مسيو ديدوا:

– ولكن لابد أن تكون لديه أسباب لكي يكون حيث يريد.. ويبدو لي أن الأمر شديد الغموض، فإن أدراج المكتب سليمة، والحافظة لم تسرق بل لا تزال هناك قطع ذهبية فوق المنضدة.

صاح جانيمار:

– نعم.. ولكن.. والماسة الشهيرة؟

– أية ماسة؟

– الماسة الزرقاء.. الماسة الشهيرة التي كانت إحدى قطع التاج الملكي الفرنسي التي ظلت تنتقل من يد إلى أخرى واستقر بها المطاف بين يدي الممثلة المشهورة ليونيه والتي اشتراها البارون دوترك أخيراً ذكرى لتلك الممثلة التي أحبها كل الحب.

قال قاضي التحقيق:

– من الواضح أن التفسير يبدو معقولاً إذا نحن لم نجد الماسة

الزرقاء ولكن أين نبحث عنها؟

أجاب شارل:

– في إصبع سيدي البارون نفسه.. فالماسة الزرقاء لم تكن تفارق يده اليسرى قال جانيمار في توكيد وهو يقترب من القتيل:

– إنني رأيت تلك اليد، ولم أر غير خاتم عادي من الذهب، ويمكنكم أن تتأكدوا من ذلك.

قال الخادم:

– وهل قلبتها ورأيتها من ناحية الكف؟

وبسط جانيمار أصابع السيد الملتوية، فإذا بالماسة الزرقاء أمامه وتمتم في ذهول:

– عجباً.. إنني لم أعد أفهم شيئاً.

وقال مسيو ديروا متهكماً:

– أظنك ستعدل الآن عن اتهام ذلك المسكين لوبين.

لزم جانيمار الصمت لحظة، وراح يفكر ثم أجاب:

– بل إن ريبتي بلوبين تزداد عندما يستعصى علي الفهم.

***

تلك هي التحقيقات الأولى التي قام بها البوليس في اليوم التالي لوقوع هذه الجريمة الغريبة، وهي تحقيقات غامضة ومبهمة، ولم يأت التحقيق فيها بعد ذلك بأية إثباتات أو براهين. وبقيت حركات إنطوانيت بريها مستغلقة تماماً كحركات السيدة الشقراء.. ولم يعرف أحد من تلك المخلوقة الغامضة ذات الشعر الأشقر التي قتلت البارون دوتريك وتركت الماسة الزرقاء في يده.. وأكثر من هذا كله أن الفضول الذي أحاط بهذه الجريمة أثار اهتمام الرأي العام إلى حد كبير

***

استغل ورثة البارون دوتريك تلك الدعاية الضخمة، فأقاموا مزاداً في نفس البيت بشارع هنري مارتان، وعرضوا المفروشات والرياش والتحف الثمينة للبيع، ومن بينها الماسة الزرقاء، في علبة من الزجاج فوق قاعدة من الكريستال مكسوة بالقطيفة الحمراء، وقام على حراستها رجلان من رجال الشرطة.

واحتشد الجمهور لمشاهدة تلك الماسة الشهيرة، حتى أنه قد خيل للناظر أن أهالي باريس اجتمعوا كلهم في ذلك القصر... وبدأت المزايدة حتى بلغت مائة ألف فرنك، وبلغت أشدها بين اثنين من المزايدين هما مسيو هرشمان، صاحب مناجم الذهب والكونتس دي

كروزون الأمريكية الثرية التي اشتهرت بحيازتها لمجموعة كبيرة من الأحجار الكريمة النفيسة.

وراح المزايد يقول وهو ينقل بصره بين المتنافسين ٢٦٠ ألفا ٢٧٠ ٢٨٠.. أليس هناك من يزيد.

وقال هرشمان فجأة:

- ٣٠٠ ألفا.

وساد الصمت، ونظر الجميع إلى الكونتس كـروزون. كانت تقف مبتسمة، ولكن ابتسامتها كانت تدل على اضطرابها وانفعالها.. واتكأت بذراعها على المقعد الذي بجوارها.. وكان الجميع متأكدين من نتيجة هذا النضال، فقد كان من المنطق والمحتوم أن يكون في صالح المالي الكبير

الذي تتيح له ثروته الطائلة البالغة خمسمائة مليون فرنك الحصول على كل ما يشتهيه.. ومع ذلك فقد نطقت الكونتس كروزون قائلة:

- ٣٠٥ ألفا.

وساد الصمت من جديد، وانتقلت العيون إلى ملك المناجم في انتظار مزايدته، في شغف ولهفة.. ولكن هرشمان ظل جامداً مكانه وعيناه محدقتان في ورقة في إحدى يديه بينما تحتفظ اليد الأخرى

بمظروف ممزق.

وعاد المزايد يقول:

– ٣٠٥ ألف فرنك.. مرة.. مرتان.. ثلاث مرات.. ولم ينطق هرشمان وبقى صامتاً، ودق المزايد المنضدة بمطرقته معلناً رسو المزاد على الكونتس كروزون، وبدأ كما لو أن صوت المطرقة أيقظ مسيو هرشمان فقد صاح يقول:

– ٤٠٠ ألف فرنك.

ولكن الأوان كان قد فات.. وأسرع الجميع حوله يسألونه ما الذي حدث، ولماذا لم تنطق قبل ذلك فضحك وقال:

– ماذا حدث؟ الحق إنني لا أدرى.. لقد سهوت لمجرد لحظة.

– أهذا ممكن؟

– نعم، فقد تلقيت رسالة في ذلك الوقت بالذات أزعجتني. وكان جانيمار موجوداً في المزاد فاقترب من أحد الخدم وسأله قائلاً:

– لا ريب أنك أنت الذي سلمت مسيو هرشمان تلك الرسالة؟

– نعم

– ومن الذي أعطاها لك؟

- سيدة.

- وأين هي؟

- أين هي... ها هي.. هناك يا سيدي، تلك التي تضع على وجهها نقاباً كثيفاً.. والتي تهم بالخروج. أسرع جانيمار إلى الباب.. ورأى السيدة تهبط الدرجات الأمامية للقصر، فجرى خلفها، ولكن اعترضته جماعة من الناس أمام الباب. وعندما خرج لم يجدها.. وعاد إلى القاعة، ومضى إلى مسيو هرشمان وقدم له نفسه وسأله عن الرسالة فأعطاها المالي الكبير له... وكانت تحتوي على بضع كلمات سطرت على عجل.. وهذا نصها:

«الماسة الزرقاء تجلب النحس لا تنس مقتل البارون دوتريك»

***

ولم تنته مصائب الماسة الزرقاء عند ذلك..فبعد أن اقترنت بمقتل البارون دوتريك، وبالأحداث التي وقعت أثناء المزاد كان يجب لشهرتها أن تبلغ الذروة بعد ستة شهور.. والواقع أنها سرقت من الكونتس كروزون التي لقيت كل العناء في سبيل الحصول عليها.. وإليكم الآن موجزاً للأحداث العثيرة والمأساوية التي وقعت، والتي أستطيع الآن أن ألقى عليها بعض الأضواء.

ففي مساء العاشر من شهر يوليه اجتمع ضيوف مسيو ومدام كروزون في الصالون الفخم بالقصر الكبير الذي يشرف على خليج السوم.

وعزفت الموسيقى، وجلست الكونتس أمام البيانو، ووضعت فوق منضدة صغيرة بجوراه مجوهراتها، وبينها خاتم البارون دوتريك.

وبعد ساعة، مضى الكونت كروزون إلى غرفه نومه، كما انصرف ابنا عمه ومدام دي ريال، الصديقة الحميمة للكونتس كروزون، وبقيت هذه الأخيرة بمفردها مع مسير بليخن، القنصل النمسوي وزوجته. وراحو يتجاذبون الحديث: ثم أطفأت الكونتس مصباحاً كبيراً على منضدة الصالون وأطفأ مسيو بليخن مصباح البيانو... وسادت الظلمة لحظة تخللها شيء من التخوف، ثم أشعل القنصل شمعة، ومضى كل منهم إلى غرفته.. ولكن ما أن بلغت الكونتس غرفتها حتى تذكرت مجوهراتها فطلبت من وصيفتها أن تمضى لكي تأتيها بها.. وعادت هذه بعد قليل ووضعت المجوهرات على رف المدفأة من غير أن تفحصها سيدتها.. وفي الصباح تحققت الكونتس من اختفاء الخاتم ذي الماسة الزرقاء... وأخبرت زوجها، وكان استنتاجها سريعاً، ولما كانت الوصيفة فوق الشبهات فلم يكن السارق غير مسيو بليخن.

وأبلغ البارون بوليس أميان، فقاموا بالتحقيق وأقاموا رقابة شديدة وسرية حتى لا يتمكن القنصل النمسوي من بيع الخاتم أو تهريبه.

ومضى أسبوعان دون أن يقع أي حادث.. وأبدى مسيو بليخن رغبته في الرحيل، وفي ذلك اليوم قدمت شكوى ضده وتدخل قوميسير البوليس بنفسه وأمر بتفتيش متاعه.. وعثروا على الماسة في علبة لمسحوق الأسنان في حقيبة صغيرة يحتفظ القنصل بمفتاحها معه ولا يتركه أبداً.

وأغمى على مدام بليخن، وألقى القبض على زوجها. ولم يستطع هذا الأخير أن ينفي التهمة عنه أو يفسر سبب وجود الماسة الزرقاء في حقيبته فيما عدا أنه انتقام من مسيو كروزون زاعماً أن هذا الأخير رجل صارم يقسو في معاملة زوجته وأنه سبق أن نصح مدام كروزون أن تطلب الطلاق منه، فنقم البارون عليه لهذا السبب ودس الماسة في علبة المسحوق.. ولكن الكونت والكونتس أصرا على اتهامها له.. ولم يستطع بوليس أميان الوصول إلى حل، فالاتهام بين ومحتمل وتفسير القنصل هو الآخر بين ومحتمل وانقضى شهر وإدارة البوليس تتخبط، وإزاء عجزها عن جلاء هذا السر العجيب طلب مسيو كروزون من إدارة بوليس باريس أن تنتدب لهما من يستطيع الكشف عن هذا

الغموض. وأرسلت الإدارة المفتش جانيمار.

وقام جانيمار بالتحقيق أربعة أيام كاملة وهو يفحص البيت والحديقة ويتبادل الأحاديث الطويلة مع الوصيفة والسائق والبستاني وموظفي مكاتب البريد القريبة... وفحص الجناح الذي كان يقيم فيه القنصل النمسوي هو وزوجته وابنا عم الكونت ومدام دي ريال.. ثم اختفى ذات صباح دون أن يستأذن مضيفه.

وبعد أسبوع أرسل إليهما البرقية التالية:

«أرجوكما الحضور غداً الجمعة، في الساعة الخامسة مساء إلى المقهى الياباني بشارع بواسي دانجلاس». جانيمار..

***

توقفت سيارتهما في تمام الساعة الخامسة أمام رقم ٩ بشارع بواسي دانجلاس.. وكان المفتش العجوز ينتظرهما أمام الباب فقادهما إلى غرفة بالطابق الأول بها شخصان قدمهما جانيمار قائلاً:

– مسيو جربوا الأستاذ بجامعة فرساي والذي سرق منه أرسين لوبين نصف مليون فرنك، كما لاشك تذكران، ومسيو ليونس دونريك، ابن أخ البارون ووريثه الشرعي.

وجلس الرجال الأربعة. وبعد دقائق أقبل رئيس البوليس، مسيو

ديدوا، وكان يبدو عليه الضجر، وقال:

– ما الخبر يا جانيمار؟ وصلتني رسالتك التليفونية. هل جد جديد؟

– نعم يا سيدي الرئيس.. ففي أقل من ساعة ستبلغ الأحداث التي ساهمت في التحقيق فيها ذروتها الأخيرة.. وبدا لي أن وجودك أمر لابد منه.

– وهل لابد أيضاً من وجود ديوزي وقولنقان اللذين رأيتها أمام المقهى؟

– نعم يا سيدي الرئيس.

– ولأي سبب؟ هل تنوي القبض على أحد؟

تردد جانيمار بضع لحظات ثم قال بلهجة من يريد التأثير على مستمعيه:

قبل كل شيء أؤكد أن لا دخل لمسيو بليخن في سرقة الماسة.

قال مسيو ديدوا

أوه. هذا قول بسيط.. وخطير جداً.

وسأله الكونت:

– أهذا هو الاكتشاف الذي انتهت إليه أبحاثك؟

– كلا يا سيدي.. ففي اليوم الثالث لوقوع السرقة ذهب ثلاثة من

ضيوفك لزيارة برج كريس.. وبينما كان اثنان منهم يشاهدان المعسكر المشهور قصد الثالث مكتب البريد وأرسل علبة صغيرة ملفوفة ومختومة بالشمع الأحمر وادعى بأن محتوياتها لا تتجاوز مائة فرنك.

قال الكونت كروزون:

– وما وجه الغرابة في ذلك؟

– قد تبدو لك غرابته حين تعرف أن ذلك الشخص لم يذكر اسمه الحقيقي، وأنه انتحل لنفسه اسم روسو وأن المرسل إليه رجل يدعي بيلو ويقيم في باريس.. وأن هذا الأخير انتقل من مسكنه في نفس اليوم الذي تلقى فيه العلبة، أو بمعنى أدق الماسة.

قال الكونت:

– لعلع أحد ابني عمي داندیل.

– كلا.

– هل تقصد أن تقول مدام دي ريال؟

– نعم.

صاحت الكونتس مشدوهة:

– هل تتهم صديقتي مدام دي ريال؟

قال جانيمار:

– أرجو الإجابة على سؤال صغير أولاً يا سيدتي.. هل حضرت مدام دي ريال المزاد الذي تم فيه بيع الماسة الزرقاء؟

– نعم... بل أعتقد أنها هي أول كم حدثتني عنها.

– الثابت من قولك هذا يا سيدتي أن مدام دي ريال هي أول من لفت نظرك إلى هذا الخاتم وأنها نصحتك بشرائه.

– ومع ذلك..فإن صديقتي لا يمكن أن..

– معذرة يا سيدتي.. إن صداقتك بمدام دي ريال ليست حميمة كما ذكرت الصحف، الأمر الذي أبعد عنها الشبهات أنت لا تعرفينها إلا منذ الشتاء الماضي، وإنني أستطيع أن أذكر لك أن كل ما ذكرته لك عن نفسها وعن ماضيها وعلاقاتها كذب في كذب، وأن لا وجود لها كذلك في الوقت الحاضر.

– وبعد؟ هذه قصة غريبة جداً.. ولكن ما علاقتها بقضيتنا هذه؟ إذا كانت قد أخذت الخاتم، وهو أمر غير أكيد، فلماذا أخفته في علبة المسحوق بحقيبة مسيو بليخن، فإن الذي يسرق شيئاً إنما يحتفظ به لنفسه.. فما ردك على هذا؟

– ليس عندي رد.. ولكن مدام دي ريال سترد عليه

- هي موجودة إذن؟

- نعم موجودة دون أن يكون لها وجود وإليك الأمر في بضع كلمات منذ ثلاثة أيام وقع نظري في إحدى الصحف التي أقرأها كل يوم على قائمة بأسماء الأشخاص الذي اختلفوا إلى فندق بوريفاج بتروفيل، ومن بينهم سيدة تدعى مدام دي ريال... ولعلك تفهمين إنني ذهبت في نفس الليلة إلى تروفيل، وقد تحدثت مع مدير الفندق، ومن أوصافه، ومن الأوصاف التي جمعتها عرفت أن مدام دي ريال هي نفس المرأة التي أبحث عنها.

ولكنها كانت قد غادرت الفندق تاركة عنوانها بباريس، وهو رقم ٣ بشارع كوليزيه.. ومضيت أول أمس إلى ذلك العنوان، وعلمت هناك أنه ليست هناك مدام دي ريال وإنما سيدة تدعى مدام ريال، تقيم في الطابق الثاني وتعمل سمسارة في تجارة الماس وإنها كثيرة الأسفار، وعرفت أنها عادت بالأمس بالذات من إحدى رحلاتها.. فطرقت بابها، وعرضت عليها باسم مستعار خدماتي كوسيط في شراء الأحجار الثمينة.. وقد تواعدت معها على اللقاء اليوم لكي نعقد أول صفقة.

- كيف هذا؟.. هل تنتظرها؟

- في تمام الخامسة والنصف.. وأنا واثق تماماً أنها مدام ريال التي

كانت في قصر كروزون، ولدي أدلة حاسمة.. ولكن.. إنني أسمع إشارة فولنفان.

ذلك أن صفيراً خافتاً انطلق في الشارع في هذه اللحظة.. وأسرع جانيمار النهوض وهو يقول:

– ليس هناك وقت. تفضلي إلى الغرفة المجاورة يا مدام كروزون، وأنت كذلك يا مسيو دوتريك.. وكذلك أنت يا مسيو جربوا... سأدع الباب مفتوحاً وسأطلب منكم التدخل عند أول بادرة.. أما أنت يا سيدي الرئيس فأرجوك أن تبقى.

قال مسيو ديدوا:

– وإذا أقبل أشخاص آخرون؟

– كلا.. هذه المقهى جديدة وصاحبها من أصدقائي ولن يدع أحداً يدخل.. فيما عدا السيدة الشقراء.

– تقول السيدة الشقراء؟

– هي بعينها يا سيدي الرئيس.. صديقة ارسين لوبين.. الغادة الشقراء الغامضة.. ولدي الأدلة الدامغة على ما أقول..• ولكنني أريد أن أجمع زيادة على ذلك شهادات جميع الذين سرقتهم.

وأطل من النافذة، وقال:

– إنها تقترب.. هل هي ذي تدخل.. لم يعد أمامهما وسيلة للهرب، ففولنفان وديوزي يحرسان الباب.. لقد وقعت الغادة الشقراء بين أيدينا يا سيدي الرئيس.

***

وعلى الفور تقريباً، ظهرت بالباب امرأة طويلة القامة ممشوقة القوام، ذات شعر ذهبي.. وأحس جانيمار بأنه يكاد يختنق، وعجز عن الكلام، فها هي ذي أمامه، ويا له من انتصار على أرسين لوبين، وياله من انتقام، وبدا له في نفس الوقت أن ذلك الانتقام من السهولة بحيث خشى أن تفلت السيدة الشقراء من بين يديه، بإحدى المعجزات التي اشتهر بها أرسين لوبين.

ومع ذلك فقد توقفت وقد أدهشها هذا الصمت، وأثار قلقها في نفس الوقت.. وفكر جانيمار: أنها ستنصرف.. إنها ستختفي.

وأسرع فوقف بينها وبين الباب، فتحولت تبغي الانصراف ولكنه قال:

كلا.. كلا.. لماذا تريدين الانصراف؟

– ولكنني لا أفهم سلوكك هذا يا سيدي.

– ليس لديك أي سبب يدعوك إلى الانصراف، ولكن لدي أنا كل الأسباب لاستبقائك.

– ولكن...

لا فائدة يا سيدتي.. لن تخرجي من هنا. تهالكت فوق مقعد وقد امتقع وجهها وقالت:

– ماذا تريد؟

وهكذا انتصر جانيمار، وأمسك بالسيدة الشقراء.. وتمتم وهو في ذروة انتصاره.. إنني أقدم لك هذا السيد، وهو الذي حدثتك عنه وقلت لك إنه يريد شراء بعض المجوهرات.. ومن الماس بالذات، فهل أتيت بما وعدتني به؟

– كلا.. كلا لا أدري... لا أتذكر... بل أنك تتذكرين جيداً... قلت لي إن أحد معارفك سيعطيك ماسة ملونة، وسألتك مازحاً:

ماسة كالماسة الزرقاء، فأجبتني:

تماماً، ربما أستطيع أن آتيك بها.. أفلا تتذكرين؟

لزمت المرأة الصمت... ووقعت من يدها حقيبة صغيرة كانت تمسك بها فأسرعت بالتقاطها، وضمتها إلى صدرها بأصابع مرتعشة..

وقال جانيمار:

أرى يا مدام ريال أنك لا تثقين بنا.. وسأعطيك أنا المثل الطيب، وأريك ما معي.

وأخرج من جيبه ورقة نشرها، وعرض عليها خصلة من الشعر وهو يقول هذه بضع شعيرات من أنطوانيت بريها، انتزعها البارون منها واستخلصناها من يده.. وقد رأيت الآنسة جربوا، وتعرفت تماماً على لون هذا الشعر وقالت إنه نفس شعر السيدة الشقراء، وهو نفس لون شعرك.

راحت مدام ريال تنظر إليه في غباء، كما لو أنها لا تفهم شيئاً مما يقول ففي حين استطرد:

– وهاك الآن زجاجتي عطر، وصحيح أنهما فارغتان، وليس عليهما علامة تميزهما ولكن ما زالت بهما رائحة استطاعت الآنسة جربوا أن تتبين منها نفس العطر الذي كانت السيدة الشقراء تستخدمه طوال الأسبوعين اللذين رافقتهما فيها.. وإحدى هاتين الزجاجتين وجدناها في الغرفة التي أقامت فيها مدام دي ريال في قصر كروزون، والأخرى في الغرفة التي نزلت فيها في فندق بوريفاج.

– ماذا تقول؟ السيدة الشقراء.. قصر كروزون.. وضع المفتش، من

غير أن ينطق، أربع ورقات فوق المائدة وهو يقول: وعلى هذه الورقات الأربع نموذج لخط أنطوانيت بريها، وآخر للسيدة التي كتبت لمسيو هيرشمان أثناء المزاد الذي بيعت فيه الماسة الزرقاء، ونموذج ثالث لخط مدام دي ريال أثناء إقامتها في قصر كروزون؟ والرابع لخطك أنت يا سيدتي.. اسمك وعنوانك اللذين تركتهما في مكتب الاستقبال بفندق بوريفاج. والنماذج الأربعة متشابهة تماماً.

– ولكنك مجنون أيها السيد.. مجنون.. ما معنى هذا؟

صاح جانيمار مزهواً:

– معناه يا سيدتي أن السيدة الشقراء صديقة أرسين لوبين، ليست سواك.

وفتح باب الغرفة المجاورة وجذب مسيو جربوا من كتفيه وهو يقول:

مسيو جربوا.. هل تعرف من هذه السيدة التي اختطفت ابنتك والتي رأيتها عند الأستاذ دتنيان.

– كلا.

سادت لحظة انفعال وذهول كبيرين.. وترنح جانيمار وهو يقول:

– كلا.. أهذا ممكن؟.. فكر جيداً.

– لا داعي للتفكير... هذه السيدة شقراء كالسيدة الشقراء..

وشاحبة مثلها.. ولكنها لا تشبهها أبداً.

– لا أستطيع أن أصدق.. هذه غلطة لا يمكن أن أقع فيها.. مسيو دوتريك، هل تعرف في هذه أنطوانيت بريها؟

– إنني رأيت أنطوانيت بريها عند عمي، وهي ليست هذه.

وقال الكونت كروزون في توكيد:

– وهي ليست مدام دي ريها.

كانت هذه العبارة الأخيرة الضربة القاضية التي أصابت جانيمار فاستولى عليه الذهول، وعجز عن النطق وتهربت عيناه، فقد انهار كل ما بناه من أدلة وبراهين.. ونهض مسيو ديدوا وقال:

– أرجو أن تلتمس لنا العذر يا سيدتي، فقد وقع خطأ مؤسف أرجوك أن تنسيه.. ولكن الشيء الذي لا أفهمه هو اضطرابك وسلوكك الغريب منذ أن دخلت هنا.

– ولكن هذا أمر طبيعي يا سيدي، فقد كنت خائفة، وفي حقيبتي مجوهرات بمائة ألف فرنك، وتصرفات صديقك لم تكن توحي بالأمان.

– ولكن رحلاتك المتعددة؟

– ألا تحتمها طبيعة عملي يا سيدي؟

وأسقط في يد رئيس البوليس، وتحول إلى المفتش وقال له:

- إنك جمعت معلوماتك في استخفاف يا جانميار، وأسأت التصرف مع السيدة.. وسأطلب منك تفسيراً لذلك في مكتبي.

وانتهت المقابلة وتأهب رئيس البوليس للانصراف عندما وقع شيء أثار الحيرة حقاً.. فقد اقتربت مدام ريال من المفتش وقالت له:

- سمعت هذا السيد يدعوك باسم جانميار.. فهل هذا اسمك؟

- نعم.

- هذا الخطاب لابد أن يكون لك إذن.. فقد تلقيته هذا الصباح وعليه العنوان الذي يمكنك أن تقرأه:

إلى السيد جوستاف جانيمار، طرف مدام ريال.. وقد خطر لي أن الأمر مجرد مداعبة من شخص ما لأنني لم أعرفك بهذا الاسم، ولكن يبدو وأن مرسل الخطاب المجهول كان على علم بلقائنا.

هم جانيمار، وهو في ثورة غضبه أن يمسك بالخطاب ويمزقه، ولكنه لم يجرؤ على ذلك أمام رئيسه فأخذه وفضه.. وكان الخطاب يضم الكلمات الآتية « التي قرأها في صوت يكاد لا يسمع:

«كانت هناك ذات يوم سيدة شقراء وكان هناك رجل يدعى لوبين

وآخر يدعى جانيمار.. وأراد الشرير جانيمار الحاق الأذى بالسيدة الشقراء، ولم يرق ذلك للوبين الطيب القلب.. ولما كان لوبين الطيب القلب يريد أن تتوطد الصداقة بين السيدة الشقراء والكونتس دي كروزون فقد عمل على أن تتقدم السيدة الشقراء إلى الكونتس منتحلة اسم مدام دي ريال وهو يكاد يكون اسم مدام دي ريال، وهي تاجرة شريفة لها شعر أشقر ووجه شاحب... وقال لنفسه إنه إذا حدث واهتدى الشرير جانيمار إلى أثر السيدة الشقراء.. فإنه ليكون من المفيد أن أضلله وأجعله يقتفي أثر التاجرة الشريفة، وهذا احتياط حكيم وله فائدته.. وأرسل لوبين كلمة صغيرة للجريدة التي يقرأها جانيمار كما بعث برسالة عطر نسيتها السيدة الشقراء عن عمد في فندق بوريفاج.

وكتبت السيدة الشقراء الحقيقية اسم وعنوان مدام دي ريال في سجل الفندق. ونجح المقلب.. فما رأيك في هذا يا جانمير؟ أردت أن أروي لك القصة بالتفصيل، وأنا أعلم أنك سوف تضحك كما هو معروف عنك لحبك المداعبة والحق أن هذه دعابة لاذعة، وأعترف من ناحيتي أنني لهوت كثيراً.

تحياتي لك يا صديقي العزيز ولمسيو ديدوا.

أرسين لوبين»

ولكن جانيمار لم يضحك، بل تأوه قال:

ولكنه يعرف كل شيء.. يعرف أموراً لم أذكرها لأحد، فكيف عرف أنني سأطلب منك القدوم أيها الرئيس.. وكيف عرف بنبأ اكتشافي للزجاجة الأولى؟.. كيف استطاع أن يعرف؟

وراح يضرب الأرض بقدميه، ويشد شعر رأسه وهو فريسة ليأس مفجع وأشفق مسيو ديدوا عليه وقال:

– هيا يا جانمير.. لا تحزن، فقد يحبوك الحظ وتوفق في المرة القادمة وانصرف رئيس البوليس وفي صحبته مدام ريال.

***

مرت عشرون دقيقة وجانيمار يعيد قراءة رسالة لوبين.. وجلست مدام دي كروزون ومسيو جربوا وراحوا يتحدثون في انفعال. وتقدم الكونت أخيراً من المفتش وقال له:

– يتضح من كل ذلك أيها السيد العزيز أننا لم نتقدم خطوة واحدة.

– عفواً.. إن تحقيقاتي أثبتت أن السيدة الشقراء هي بطلة هذه الأحداث دون أي شك، وأن لوبين هو الذي حرضها، وهذه خطوة كبيرة.

– ولكنها لا تفيدني في شيء... بل إن اللغز تعقد أكثر.. إن السيدة الشقراء قتلت لكي تسرق الماسة الزرقاء، وهي لم تسرقها لنفسها وإنما تخلصت منها لصالح شخص آخر.

– لا حيلة لي في ذلك.

– هذا أمر مؤكد. ولكن غيرك قد تكون له حيلة.

– ماذا تقصد أن تقول؟

تردد الكونت ولكن الكونتس تكلمت نيابة عنه فقالت على الفور:

– هناك رجل.. رجل واحد جدير بمنازلة لوبين والتغلب عليه.. ألديك اعتراض يا مسيو جانيمار في أن نطلب معونة شرلوك هولمز؟

بدأ القلق على وجه جانيمار وقال:

– كلا.. ولكنني لا أفهم..

إن كل هذا الغموض يكاد يخنقني، وأريد أن أرى الأمر بوضوح.. ومسيو جربوا يشاركني الرأي. وكذلك مسيو دوتريك.. وقد اتفقنا على الاستعانة بالبوليس السري الإنجليزي الشهير.

قال المفتش في إخلاص لم يكن بعيداً عن الصدق:

أنت على حق يا سيدتي.. فإن جانيمار العجوز ليس أهلاً لمنازلة

أرسين لوبين.. ولكن هل يفلح شرلوك هولمز في ذلك؟ إنني أتمنى له ذلك لأنني شديد الإعجاب به... ومع ذلك فهو أمر بعيد الاحتمال.

– أتراه أمراً بعيد الاحتمال حقاً.

– هذا رأيي.. فإنني أعتبر أن نضالاً بين شرلوك هولمز وأرسين لوبين لن تكون نتيجته إلا الفشل.

– هل يمكنه الاعتماد عليك على كل حال؟

– كل الاعتماد يا سيدتي.. إنني لن أبخل عليه بمساعدتي أبداً.

– هل تعرف عنوانه؟

– نعم.. رقم ٢١٩ بشارع باركر.

وفي نفس الليلة سحب الكونت وزوجته شكواهما ضد القنصل بليخن وأرسلا خطاباً إلى شرلوك هولمز.

***

٣ – شرلوك هولمز يبدأ النضال

دعاني أرسين لوبين لتناول العشاء في مطعم صغير بمحطة الشمال. وكان يحلو له أن يلتقي بي من وقت لآخر فيحدد لي تليفونياً مكان اللقاء.

وكان سعيداً بالحياة كطفل صغير. وفي كل مرة ألتقى به فيها يروي لي من مغامرة من مغامراته العديدة.

بدا لي في ذلك المساء أكثر حيوية من كل وقت مضى.. كان يضحك ويثرثر في مرح غريب، تشوب صوته تلك السخرية التي اشتهر بها وهي سخرية تلقائية، بعيدة عن المرارة، ولم يسعني إلا أن أعبر له عن سروري فضحك وقال:

– نعم يا صديقي... تمر بي أيام يبدو لي فيها كل شيء مرحاً ولذيذاً، وأشعر فيها أن حياتي كنز لن ينضب أبداً... والله وحده يعلم أنني أعيش

بلا حساب.. والحق أن حياتي جميلة ما على إلا أن أريد فأصبح بين يوم وليلة لا أدري... خطيباً أو رئيس ورشة أو رجل سياسة.. ولكنني أقسم لك أن ذلك لا يخطر لي أبداً.. فأنا أرسين لوبين وسأظل أرسين لوبين، وأبحث عبثاً في التاريخ عن مصير كمصيري، حافل ومتسع ومشحون... نعم.. ربما نابليون، ولكن نابليون، في أواخر ثم حياته هزمته أوروبا وكان يتس[illegible]ركة إن لم تكن تلك معركته الأخيرة.

[illegible]كلم جدياً أم أنه كان يمزح. ارتفعت رنة صوته وازد[illegible] وهو يسترسل قائلاً.

- إن الخطر يحدق بحياتي باستمرار.. إنني استنشق الخطر كما يستنشق سواي الهواء.. وأشعر به حولي يهدر... ويدوي ويترصدني، ويدنومني... وأظل هادئاً في قلب العاصفة، لا أتحرك ولا أبالي وإلا فسوف أضيع، وليس هناك إحساس يعادل إحساسى هذا، إحساس السائق الذي يقود عربة سباق، ولكن السباق سرعان ما ينتهي، وسباقي أنا يدوم طوال الحياة.

صحت أقول:

ما هذا الحماس!... وهل تريدني أن أصدق أنه ليس هناك من هدف تسعى إليه؟

ابتسم وقال:

– أنت رجل ذكي... الحقيقة أن هناك هدفاً.. وصب لنفسه كوباً من الماء البارد وجرعه ثم قال:

– هل قرأت جريدة الطان التي ظهرت صباح اليوم؟

– كلا.

– لقد عبر شرلوك هولمز المانش ووصل باريس في نحو الساعة السادسة.

– يا للشيطان! ولماذا؟

– رحلة بسيطة على حساب الكونت كروزون وزوجته وابن الأخ دوتريك والأستاذ جربوا... وقد التقوا جميعاً في محطة الشمال وانضموا بعد ذلك إلى جانيمار، وهم يتداولون الآن.

رغم فضولي الكبير لا أسمح لنفسي أبداً بسؤال أرسين لوبين عن أحداث حياته الخاصة قبل أن يحدثني هو عنها.. ثم إنه في ذلك الوقت بالذات لم يأت ذكر اسمه رسمياً في قضية الماسة الزرقاء ولهذا تجملت بالصبر.

واستطرد هو يقول:

– وقد نشرت الطان أيضاً حديث جانيمار ويقول فيه إن سيدة شقراء يزعم أنها صديقة لي قتلت البارون دوتريك، وحاولت أن تسرق خاتم مدام كروزون، وهو يتهمني طبعاً بأنني المحرض لهاتين الجريمتين.

سرت في بدني رعشة خفيفة... هل هذا صحيح. لا يمكن أن أصدق أن عادة السرقة وطبيعة حياته ومنطق الأحداث نفسها جرت هذا الرجل حتى جريمة القتل نظرت إليه فاحصاً... كان يبدو هادئاً جداً تنطق عيناه بالصراحة... وتمتمت:

– إن جانيمار مهووس.

ولكنه احتج قائلاً:

– كلا إنه رجل رقيق الشعور، بل إنه نبيه في بعض الأحيان.

– نبيه؟

– بلى... فهذا الحديث مثلاً، إنما هو ضربة... معلم، فهو يعلن قبل كل شيء عن قدوم غريمه الإنجليزي حتى ينبهني ويزيد مهمة هولمز صعوبة وثانياً يحدد النقطة التي بلغ فيها من أبحاثه وتحقيقاته حتى لا يجنى هولمز والإثمار اكتشافاته هو بالذات.

– مهما يكن فإن أمامك الآن خصمين، وأي خصمين!

– أوه، إنني لا أعمل حساباً لأحدهما على الإطلاق.

– والآخر؟

– هولمز؟... أعترف بأنه ند لي، وهذا هو مبعث مرحي، وغبطتي، فهي مسألة كرامة قبل كل شيء، فهم يعتقدون أن الإنجليزي الشهير لن يخيب رجاءهم، وأن النزال بيني وبينه سيكون مثيراً، ثم إنني سأضطر إلى استخدام كل مواهبي، فإنني أعرف الرجل وهو لن يحجم عن شيء.

– هل هو قوي؟

– بل قوي جداً... لا أعتقد أن هناك من رجال البوليس من يعادله. ولكنني أمتاز عليه بشيء وهو أنه يهاجم في حين أنني أدافع عن نفسي، ودوري أسهل من دوره... زد على ذلك...

وابتسم ابتسامة خفيفة واسترسل:

– زد على ذلك أنني أعرف طريقته في النضال، في حين أنه لا يعرف طريقتي... وأني أحتفظ له ببعض المفاجآت التي ستحمله على التفكير.

وراح يربت بطرف أصبعه على المائدة ويقول في مرح:

– أرسين لوبين صد شرلوك هولمز... فرنسا ضد إنجلترا... يا

للمسكين إنه يشك في أنني على استعداد للقائه.

وأمسك فجأة وراح يسعل مخفياً وجهه في المنشفة كمن ابتلع شيئاً وقف في حلقه... فسألته:

- قطعة من الخبز؟

أجابني صوت مكتوم:

- كلا.

- ماذا بك إذن؟

- إنني بحاجة إلى هواء.

- أتريد أن أفتح النافذة؟

- كلا. إنني سأخرج.. أعطني معطفي وقبعتي... سألوذ بالفرار.

- آه.. ولكن ما معنى هذا؟

- هل ترى هذين الرجلين اللذين دخلا الآن؟.. الطويل القامة... عندما نخرج امش إلى يساري حتى لا يراني.

الرجل الذي يجلس خلفاً الآن؟

- نعم... هو... أفضل أن أخرج لأسباب شخصية... سأذكرها لك في الخارج.

– ولكن، من هو؟

– شرلوك هولمز.

وبذل جهداً جباراً لكي يتمالك نفسه، كما لو أنه خجل لاضطرابه وأعاد المنشفة مكانها وشرب جرعة ماء وقال وهو يبتسم وقد استرد هدوءه تماماً.

– هذا غريب، أليس كذلك؟ إنني لا أنفعل بسهولة... ولكنني فوجئت برؤيته.

– وما الذي تخشاه مادام لن يعرفك أحد من خلال تنكراتك... أنا نفسي عندما أراك في كل مرة يبدو لي أنني أمام رجل غريب.

قال أرسين لوبين:

– أما هو فسيعرفني... لم يرني غير مرة، وقد خيل لي أنه تغلغل في كياني بحيث سيعرفني كلما رآني رغم تنكري.. ثم... ثم إنني لم أكن أتوقع يا للمصادفة الغريبة... في هذا المطعم الصغير!

قلت:

– ستخرج إذن؟

– كلا... من الخير أن أتصرف بوضوح وبدون أي تردد، فسوف

أستفيد من استجوابه، وأعرف ما يعرفه عني... آه... أشعر أن عينيه تحدقان في ظهري وكتفي وأنه يحاول... أن يتذكر.

وأخذ يفكر... ورأيت ابتسامة خبيثة ترتسم على ركن شفتيه، ثم، كما لو أنه خضع لنزوة طارئة، نهض فجأة ودار على عقبيه، وانحنى وكله مرح وقال:

– يا للمصادفة السعيدة!... اسمح لي أن أقدم لك أحد أصدقائي...

بدت الحيرة لمجرد لحظة أو لحظتين على الإنجليزي ثم تحرك بالغزيرة على أهبة أن ينقض على أرسين لوبين... ولكن هذا الأخير هز رأسه وقال:

– إنك لتخطى.. ثم إن المحاولة لن تكون جميلة أو مجدية.

نظر الإنجليزي يميناً وشمالا، كما لو كان يبحث عن نجدة، ولكن لوبين قال:

– ولن يجديك هذا أيضاً... ومهما يكن فهل لك صفة في إلقاء القبض عليَّ... تمالك أعصابك.

لم يجد الإنجليزي أمامه إلا أن يتمالك أعصابه حقاً، لأنه وقف وقال في برود:

– مسيو واطسون، صديقي... مسيو أرسين لوبين.

أثارت دهشة واطسون الضحك، لقد جحظت عيناه وفغر فاه وتمتم:

– لماذا لا تلقي القبض عليه؟

– ألم تلاحظ يا واطسون أن هذا السيد يقف بيني وبين الباب، وعلى بعد خطوتين منه بالذات، بحيث لا أكاد أتحرك حتى يكون قد اختفى؟

قال لوبين:

– لا يشغلنك هذا الأمر.

ودار حول المائدة، وجلس بحيث أصبح الإنجليزي بينه وبين الباب وبذلك غدا تحت رحمته.

نظر واطسون إلى هولمز إن كان يقدر هذه الجرأة، ولكن الإنجليزي ظل محتفظاً ببروده، وصاح بعد لحظة:

– جرسون.... صودا وبيرة وويسكي.

وهكذا حل السلام حتى إشعار آخر. ولم نلبث أن جلسنا نحن الأربعة حول المائدة ورحنا نتبادل الحديث في هدوء.

***

وشرلوك هولمز رجل كغيره من الرجال، في الخمسين من العمر، وأشبه ببورجوازي قضى حياته أمام مكتب يمسك دفاتر الحسابات ولا يميزه شيء عن أي رجل إنجليزي... ولكن من يراه يتساءل حقاً إن لم يكن ذلك الرجل الأسطوري الذي يتميز ببصيرة وعبقرية غريبتين وذكاء خارق لم يخرج حياً من مخيلة كونان دويل مثلاً.

وإذا سأله أرسين لوبين على الفور عن المدة التي ينوي قضاءها في باريس إجابة بقوله:

– هذا أمر رهن بك أنت يا مسيو لوبين.

صاح الآخر وهو يضحك:

– أوه، إذا كان الأمر رهناً بي فإنني أرجوك أن تستقل أول باخرة هذه الليلة بالذات.

– الأمر يكون مبكراً جداً الليلة... ولكن أرجو أن يكون ذلك بعد ثمانية أو عشرة أيام.

– وهل أنت مستعجل إلى هذا الحد؟

– إنني مشغول حالياً بأعمالي كثيراً، فهناك حادث سرقة البنك الإنجليزي الصيني، واختطاف الليدي أكلستون.. ولكن هل تظن أن أسبوعاً يكفي يا مسيو لوبين؟

... بأكثر مما يكفي إذا بذلت جهدك لحل القضية المزدوجة للماسة الزرقاء ثم إنها المدة التي تكفيني لكي أتخذ احتياطاتي إذا أعطتك هذه القضية المزدوجة ميزة على لها خطورتها.

– ذلك أنني أنوي أن أبلغ هذه الميزة في غضون ثمانية أو عشرة أيام.

– وأن تلقى القبض على في اليوم الحادي عشر.

– بل في اليوم العاشر، فهو أقصى حد.

فكر لوبين لحظة ثم هز رأسه وقال:

– هذا أمر عسير.... جد عسير.

– هو عسير طبعاً، ولكنه ممكن... بل هو أكيد.

وقال واطسون كما لو أنه رأى هو نفسه عملية الأحداث الطويلة التي ستقود صديقه إلى النهاية التي أعلن عنها أكيد بالطبع.

وابتسم هولمز وقال:

– وواطسون يعرفني حق المعرفة ويؤكد لك ذلك ثم استطرد يقول:

– صحيح إنه ليست لدى كل الأوراق التي تضمن لي النجاح حيث إن القضية قد مر عليها شهور طويلة، وحيث إنني أفتقر إلى العناصر والأدلة التي اعتدت أن أبني عليها أبحاثي.

وقال واطسون في اهتمام:

– كآثار الأقدام وبصمات الأصابع وأعقاب السجائر.

– ولكن لدي، فيما عدا النتائج الرائعة التي توصل إليها مسيو جانيمار كل المقالات التي نشرتها الصحف في هذا الصدد والملاحظات التي أبديت وآراء شخصية عن القضية.

وأردف واطسون:

– وهي آراء توصلنا إليها سواء بالتحليل أو بالتفكير.

سأل لوبين بتلك اللهجة التي يشوبها الاحترام عندما يخاطب بها الإنجليزي الشهير:

– هل يكون فضولاً مني إذا سألتك عن الرأي العام الذي كونته لنفسك في هذه القضية؟

حشا هولمز غليونه في بطء وأشعله، ثم أجابه في احترام:

– إنني أعتقد أن هذه القضية ليست معقدة جداً كما يبدو من أول وهلة.

وقال واطسون:

– نعم...غير معقدة تماماً.

وأردف هولمز:

- أتولى قضية لأنه ليس هناك غير قضية واحـدة، فإن موت البارون دوتريك وقصة الخاتم، ولا تنس لغز الورقة رقم ٥١٤ من المجموعة رقم ٢٣ ما هي إلا أوجه مختلفة لما يمكن أن نسميها بلغز الغادة الشقراء... وأرى أنه يكفي أن نكتشف الرابطة التي تجمع بين هذه الحلقات الثلاثة التي تدور عليها نفس القصة... وجانيمار رجل سطحي بعض الشيء يرى هذه الرابطة في القدرة على الاختفاء وفي الدخول والخروج عبر الجدران أنا أنا فلا ترضيني هذه المعجزة.

- وإذن؟

قال هولمز في بطء:

أرى أن لك في أحداث هذه المغامرات الثلاث غرضاً واضحاً ومحدداً وإن لم يكن ظاهراً حتى الآن، وهو أن تصل بهذه القضية إلى المكان الذي اخترته أنت بنفسك، فإن لك أكثر من خطة، بل ضرورة، وشرط مؤكد للنجاح.

- هل يمكن أن تدخل في بعض التفاصيل؟

- بكل سرور... فمنذ بداية خصومتك مع الأستاذ جربوا، كان من الواضح أن مكتب الأستاذ دتنيان هو المكان الذي اخترته أنت للاجتماع، فقد كنت مطمئناً كل الاطمئنان من ذلك المكان بحيث

تواعدت فيه أنت والغادة الشقراء على لقاء الأستاذ جربوا... ولنتكلم الآن عن الماسة الزرقاء هل حاولت الحصول عليها وهي في حوزة البارون دوتريك؟ كلا... ولكن البارون انتقل إلى قصر أخيه، وبعد ستة شهور تدخلت أنطوانيت بريها وقامت بأول محاولة، وضاعت منك الماسة، وأقيم المزاد وأحيط بهالة كبيرة من الدعاية والإعلان... فهل سيكون المزاد حراً؟ وهل سيتمكن الأمريكي الثري، هاوي جمع التحف الحصول عليها؟... أبداً... ففي اللحظة التي أوشك فيها البارون هيرشمون الحصول عليها أرسلت إليه سيدة رسالة تهديد... وإذا بمدام كروزون تشتري الماسة بإيعاز من نفس تلك السيدة، فهل ستختفي الماسة عندئذ بسهولة؟ كلا، فأنت مازالت تفتقر إلى الوسائل، وكان لابد من إيجاد حل... ولكن انتقلت الكونتس إلى قصرها، وكنت أنت تنتظر هذه الفرصة، فاختطفت الماسة.

قال لوبين:

- ولكنها ظهرت بعد ذلك في حوزة القنصل النمسوي.

صاح هولمز وهو يهوي بقبضته على المائدة:

- كلام فـارغ.... هذا حديث خرافة لا ينطلي إلا على المغفلين والأغبياء، فإن الماسة الزرقاء التي اكتشفت في متاع القنصل النمسوي

ماسة مقلدة. أما الماسة الحقيقية فقد احتفظت أنت بها.

بقى أرسين لوبين صامتاً لحظة ثم حدق في الإنجليزي بكل بساطة. وقال له:

– أنت خصم مخيف يا سيدي.

– يكفي أن يعرف الإنسان كيف يفكر.

– نعم... يكفي أن يفكر الإنسان... والذين يعرفون قليلون... والآن، وقد ضاق مجال التخمينات ووضح الطريق.

– لم يبق أمامي الآن إلا اكتشاف كيف انتهت المغامرات الثلاث إلى رقم ٢٥ بشارع كلا بيرون ورقم ١٣٤ بشارع هنري مارتان ٢ وبين جدران قصر كروزون... القضية كلها في هذه النقطة.. أما الباقي فما هو إلا هذر وألغاز أطفال... أليس هذا رأيك؟

– هو ذلك.

هل أنا مخطئ إذا يا مسيو لوبين إذا قلت إنني سأفرغ من مهمتي في خلال عشرة أيام.

– كلا.... ستعرف كل الحقيقة في خلال عشرة أيام.

– وسألقي عليك القبض.

- كلا.

- كلا؟

- لكي تلقى على القبض فلابد من ظروف وملابسات عجيبة وسلسلة من المصادفات السيئة والمذهلة، ولكنها أمور بعيدة الاحتمال.

- إن ما تعجز عنه الظروف والمصادفات السيئة لا تعجز عنه إرادة الرجل إذا ما أصر على ذلك.

- هذا إذا لم تقف ضد هذه الإرادة وهذا الإصرار عقبة لا يمكن التغلب عليها.

والنظرة التي تبادلها الرجلان كانت عميقة، خالية من أي تحد... كأنها صلصلة سيفين يلتقيان.. وكان ذلك واضحاً وصريحاً... وصاح لوبين أخيراً:

- حسن... أنت رجل حقاً.. وخصم يحلو لي أن أناضله.

سأله واطسون:

- ألست خائفاً؟

أجابه لوبين وهو ينهض:

- أكاد أخاف... والدليل هو أنني سأمضي لإعداد المقر الذي

سأعتزل فيه، وإلا فإنني أجازف بالوقوع في المصيدة.

تقول عشرة أيام إذن يا مستر هولمز؟

– عشرة أيام... اليوم هو الأحد... وموعدنا الأربعاء بعد القادم.

– وسأكون خلف القضبان؟

– دون أي شك.

–عجباً... وأنا الذي أغتبط بحياتي الهادئة بلا مشاكل، وأعمال صغيرة لا بأس بها لمناوشة البوليس دون أن أحفل به، والإحساس بأن الراحة تحيط بي من كل النواحي يجب أن أغير كل هذا إذن... بعد الجو الصحو والجميل... لم يعد هناك مجال للضحك... وداعاً.

قال واطسون في تقديره الكبير لهولمز:

– أسرع إذن ولا تضيع دقيقة واحدة.

– لن أضيع أية دقيقة يا مستر واطسون، ولكن اسمح لي أن أعبر لك فقط عن مدى سعادتي بهذا اللقاء، وعن غبطتي لمستر هولمز بأن يكون له مساعد قدير مثلك.

وانحنى لوبين أمامهما في احترام، وأمسكني من ذراعي وجذبني إلى الشارع، وقال:

– ما رأيك الآن يا عزيزي؟ هذه وجبة سوف تكون لأحداثها تأثيراً كبيراً في مذكراتك التي تكتبها عني.

وتوقف بعد خطوات من المطعم، وأشعل سيجارة بعود من الثقاب، وراح يهزه عدة مرات ثم؟ ألقى بالسيجارة إلى الرصيف وعبر الشارع وهو يجرين وانضم إلى رجلين برزا من الظلام، كما لو كان يردان على إشارة ما... وتحدث معهما بضع دقائق ثم عاد إلي وقال:

– أرجو المعذرة... فإن هذا الشيطان هولمز سيثير العقبات أمامي، ولكنني أقسم لم أنه لم يفرغ مع لوبين... آه يا للوغد! سوف أريه أنني خير ند له... إلى الملتقى... إن واطسون على حق فلا يجب أن أضيع دقيقة واحدة.

وأسرعت بالابتعاد.

وهكذا انتهت تلك السهرة العجيبة أو على الأقل الجزء الذي اشتركت فيه منها، لأنه وقعت خلال الساعات التي تلت أحداثا استطعت أن أجمعها من اعترافات بعض المدعوين الآخرين في ذلك العشاء.

***

في نفس اللحظة التي غادره فيها أرسين لوبين أخرج هولمز ساعته

ونهض بدوره وهو يقول:

– التاسعة إلا عشرين دقيقة... إن موعدي مع الكونت والكونتس في المحطة الساعة التاسعة... لا تدر رأسك يا واطسون... فلعل هناك من يتبعنا... ولكن خبرني، ما سبب وجود لوبين في المطعم؟

أجاب واطسون على الفور ودون أي تردد:

– لكي يأكل طبعاً.

– كلما عملنا معاً يا واطسون كلما تحققت من أنك تتقدم... ولعمري أنك أصبحت تثير الاهتمام.

وفي الظلام، اضطرم وجه واطسون من فرط سروره، في حي استطرد هولمز:

– حسنا... لكي يأكل، ولكي يتأكد من أنني سأذهب إلى كروزون كما أعلن جانيمار في حديثه الصحفي... وسأذهب إذن لكي لا أخيب ظنه... ولكن، بما أنه لا يجب إضاعة الوقت مثله فلن أذهب، أما أنت، فاسلك يا صديقي هذا الشارع واستقل مركبة ثم أخرى فثالثة، ثم عد بعد ذلك وخذ حقائبنا التي تركناها في الأمانات، وأسرع بعد ذلك إلى فندق الإليزيه، واحجز غرفة ونم ملء جفنيك، وانتظر تعليماتي.

***

مضى واطسون وهو مزهو بالدور المهم الذي أسند إليه، في حين أخذ شرلوك هولمز تذكرته ومضى إلى سريع أميان حيث جلس الكونت والكونتس واكتفى بأن حياهما ثم أشعل غليونه من جديد وراح يدخن في هدوء وهو واقف في الطرقة.

وبعد أن انطلق القطار بعشر دقائق تقدم وجلس بجوار الكونت وقال:

– هل معك خاتمك يا سيدتي؟

– نعم.

– تكرمي وأعيريه إلي.

وأخذ الخاتم وفحصه ثم قال:

– هذا ما ظننت... إن الماسة مجددة.

– مجددة؟

– هي طريقة جديدة قوامها صهر غبار الماس تحت نار عالية جداً حتى يذوب، ثم يصب من جديد في ماسة واحدة.

– ماذا تقول؟ ولكن ماستي حقيقية.

– ماستك حقيقية فعلاً.. ولكن هذه الماسة ليست ماستك.

– وأين ماستي إذن؟

– بين يدي أرسين لوبين... أما هذه فقد استبدلت بها ودست في مسحوق أسنان القنصل النمساوي.

– هي مقلدة إذن؟

– تماماً يا سيدتي.

صعقت الكونتس، وبدا عليها الذهول... وانتهت بأن غمغمت:

– أهذا ممكن؟ ولكن لماذا لم يكتف بسرقتها... وكيف استولى عليها؟

– هذا ما سأحاول الكشف عنه بالذات.

– في قصر كروزون؟

– كلا.... إنني سأهبط في المحطة التالية وسأعود إلى باريس، فهناك يجب أن تدور المعركة بيني وبين أرسين لوبين... والمعركة يمكن أن تدور في أي مكان... ولكن من الأوفق أن يعتقد لوبين أنني أقوم برحلة.

– ولكن.

– لا يشغلنك الأمر يا سيدتي... المهم هو أن تعود ماستك إليك.

ولك أن تطمئني. فقد قطعت على نفسي عهداً منذ قليل ووعدت موعداً من العسير الوفاء به، ولكنني أقسم لك أنني سأعيد إليك ماستك الحقيقية وأبطأ القطار في هذه اللحظة، فدس الماسة المزيفة في جيبه وفتح الباب فصاح الكونت:

- ولكنك تهبط بين القضبان.

- إذا كان لوبين يراقبني، فسيفقد أثري بهذه الطريقة.

وبعد خمسين دقيقة، ركب قطاراً عاد به إلى باريس عند منتصف الليل، واجتاز المحطة ركضاً ودخل البوفيه، وخرج من باب آخر وأسرع إلى مركبة وقال لسائقها:

- امض بي إلى شارع كلا بيرون.

وإذ تأكد من أن أحداً لا يتبعه أوقف العربة في أول الشارع وقام بفحص دقيق لبيت الأستاذ دتنيان والبيتين المجاورين له... وبخطوات متساوية قاس بعض المسافات، ودون بعض الملاحظات والأرقام في مذكرته... ثم عاد إلى العربة وقال للسائق:

- والآن امض بي إلى شارع هنري مارتان... وعند ناصية شارع لابومب نقد السائق أجره ثم مشى على الرصيف حتى رقم ١٣٤، وقام بنفس الإجراءات أمام قصر البارون والبيتين المجاورين له... وقاس

عرض الواجهات والحدائق الصغيرة.

وكان الشارع مقفراً ومظلماً جداً بصفوفه من الأشجار التي يقوم بينها من مسافة لأخرى فانوس لا يكاد يبدد ظلمة المكان... وكان أحد هذه الفوانيس يعكس نوراً باهتاً على جزء من القصر، ورأى هولمز لافتة تحمل كلمة «للإيجار» معلقة على الباب فقال يحدث نفسه:

– هذا صحيح... فمنذ موت البارون لم يسكنه أحد... آه... لو أستطيع أن ألقي نظرة بداخله! وما أن واتته هذه الفكرة حتى بدأ بتنفيذها... كان ارتفاع الباب يجعل من المستحيل تسلقه فأخرج من جيبه مصباحاً كهربياً و «طفاشة» لا يتخلى عنها أبداً... ورأى لدهشته أن أحد مصراعي الباب موارب، فتسلل إلى الحديقة وهو يحرص على أن لا يقفل الباب خلفه... ولكنه لم يتقدم ثلاث خطوات حتى توقف، فقد سطع ضوء في إحدى نوافذ الطابق الثاني.

وانتقل النور إلى النافذة الثانية ثم إلى الثالثة... ولم يتمكن من رؤية شيء أكثر من خيال يمر على جدران الغرف... وهبط النور من الطابق الثاني إلى الأول وراح ينتقل من غرفة إلى أخرى... وتساءل هولمز قائلاً:

– من ذلك الذي يتجول في الساعة الواحدة صباحاً، في البيت الذي قتل فيه البارون دوتريك.

لم يكن هناك غير وسيلة واحدة لمعرفة ذلك، وهي أن يدخل البيت بدوره ولم يتردد... ولكنه عندما بلغ البسطة وقع عليه نور الفانوس، ولا ريب أن الرجل رآه لأن الضوء انطفأ، ولم يره هولمز من جديد.

ودفع الباب فوجده موارباً هو الآخر، وإذا لم يسمع أية حركة جازف في الظلام، ووجد سور الدرابزين، وصعد طابقاً، في جوف الصمت والظلام.

وإذا بلغ البسطة دخل غرفة واقترب من النافذة التي رسمها شيئاً ما ضوء الليل.... وعندئذ رأى في الخارج رجلاً لا ريب أنه هبط سلماً آخر وخرج من باب آخر، وراح ينتقل في حذر، شمالا، بين الأشجار، فقال في نفسه: سحقاً!.... إنه سيفلت مني.

وهبط الطابق مسرعاً، يريد أن يعترض طريق الرجل، ولكنه لم ير أحداً وكان لابد له من بضع ثوان لكي يلمح خلف الأشجار شبح رجل.

فقال:

أبرع منه إنه ليس لوبين على كل حال... فإن لوبين واحد من رجاله.

ومرت دقائق طويلة وهولمز لا يتحرك، وعينه محدقة في الخصم

الذي يراقبه... ولكن إذا لم يتحرك ذلك الخصم، ولما كان هولمز لا يحب البقاء ساكناً فقد تحقق من فاعلية مسدسه، وأخرج خنجره من غمده، بهما.

وصدرت حركة أدرك منها هولمز أن الرجل يعمر مسدسه فانقض عليه فجأة... ودار بين الرجلين عراك عنيف كان الرجل يحاول أثناءه إخراج خنجره هو الآخر... واغتاظ هولمز، وجمع كل قواه للتغلب على شريك أرسين لوبين وطرحه أرضاً وجثم فوقه بكل قوته... وشل حركته بأصابعه الخمسة بأن غرزها في عنق الرجل، وبأصابع يده الأخرى أخرج مصباحه الكهربي وسلط نوره على وجه أسيره... ولكنه ما أن رآه حتى صاح مذعوراً

- واطسون!

وتمتم صوت مكتوم أجش:

- شرلوك هولمز!

بقيا لحظة طويلة جامدين لا ينطقان بكلمة وقد تفرغ ذهنهما... وأعادهما إلى عالم الواقع بوق سيارة... فأطلق هولمز صديقه وقد اجتاحه غضب شديد، ثم أمسكه من كتفيه وراح يهزه في عنف ويقول، ماذا تفعل هنا؟ تكلم... هل قلت لك أن تختفي خلف الأشجار

وتتجسس علي؟

تأوه واطسون وقال:

- أتجسس عليك؟... ولكنني لم أكن أعرف أنه أنت.

- ماذا تفعل هنا إذن؟... كان يجب أن تغط الآن في النوم.

- كنت نائماً ولكن جاءني رسول في الفندق برسالتك.

- رسالتي؟... هل أنت مجنون؟... وأين هذه الرسالة؟ ناوله صديقه ورقة قرأ فيها على ضوء مصباحه الكهربي الكلمات التالية:

«اترك فراشك حالاً يا واطسون وأسرع إلى شارع هنري مارتان... إن البيت شاغر فادخل وافحص المكان، وارسم لي رسماً دقيقاً ثم عد لكي تنام... شرلوك هولمز».

وقال واطسون:

- كنت منهمكاً في أخذ مقاسات الغرف عندما رأيت شخصاً يتحرك في الحديقة، وخطر لي...

قال هولمز وهو يساعد صديقه على النهوض:

- أن تنقض على ذلك الشخص... كانت الفكرة رائعة، ولكن عندما تتلقى رسالة فتتأكد أولاً أنها بخط يدي وأنها ليست مزورة.

قال واطسون وقد بدأ يرى الحقيقة:

– هي ليست منك إذن؟

– كلا للأسف.

– ممن إذن؟

– من أرسين لوبين.

– ولكن لأي غرض كتبها؟

– أما هذا فلا أدري. وهذا ما يقلقني بالذات... ولما أرسلها إليك أنت ولم يرسلها إلي.

– أريد العودة الآن إلى الفندق.

– وأنا أيضاً يا واطسون.

وبلغا البوابة... وكان واطسون في المقدمة... وحاول أن يفتحها ولكنها استعصت عليه فقال:

– آه... هل أغلقت الباب؟

– أبداً... إنني تركته مواربا كما كان.

– ومع ذلك....

وجذب شرلوك هولمز الباب بدوره فاستعصى عليه هو الآخر، وصاح:

يا للشيطان! إنه مقفل بالمفتاح.

وراح يهز الباب بكل قوته... وإذا أدرك أخيراً عدم جدوى محاولته ترك ذراعيه يتراخيان إلى جنبيه وقال في صوت متقطع:

– إنني أفهم كل شيء الآن... إنه هو... لقد توقع أنني سأهبط من القطار في إحدى المحطات وأعود إلى باريس فنصب لي هذا الفخ الصغير، إذا ما بدأت تحقيقاتي الليلة بالذات... ثم إنه كان من الكرم بحيث أرسل إلي زميلاً، وكل ذلك يضيع على يوماً، ولكي يثبت لي دون شك أن من الخير لي أن أهتم بشئوني.

– معنى هذا أننا أسيران هنا؟

– هو ذلك... شرلوك هولمز وواطسون أسيران عند أرسين لوبين إن المعركة تبدأ بطريقة رائعة، ولكن لا.... إنني لا أقبل هذا.

وألقى واطسون يده في هذه اللحظة... على كتفه وقال:

– انظر... فوق نور.

كانت إحدى نوافذ الطابق الأول مضاءة فعلاً.

وانطلق ركضاً، كل من ناحيته... كانت تشتعل في الغرفة بقية من شمعة وبجوارها سلة بها زجاجة من النبيذ وبعض شرائح من لحم

الدجاج وبعض الخبز، وتمتم واطسون:

- ألا تجد المر غريبا جداً؟

صاح هولمز في مرح غير طبيعي:

- بل أجده كذلك حقاً... أعني أنني لم أر في حياتي أغرب من هذا... إنه لأمر مضحك... إن هذا الأرسين لوبين أستاذ في فن الدعابة... إنه يخدعك ولكن بطريق ظريفة جداً... لن أتخلى عن مكاني في هذه الوليمة مقابل ذهب الدنيا... أنت تثير ضجري يا صديقي العزيز... أتراني أسأت الظن بك، أولاً تكون على كرم من الأخلاق لكي تتغلب على هذه المحنة؟ مم تشكو؟ كان يمكن أن يكون خنجري في صدرك في هذه الساعة أو أن يكون خنجرك أنت في صدري لأن ذلك ما كنت تحاول أن تفعل أيها الصديق الشرير.

وأفلح بدعاباته وتهكماته في إنعاش ذلك المسكين واطسون، وأن يحمله على أن يزدرد فخذة دجاجة وكأس من النبيذ... ولكن عندما ذوت الشمعة واضطر إلى التمدد للنوم على الأرض، واستخدام الجدار كوسادة، بدا لهما الجانب المضحك والمؤلم من الموقف... وكان نومهما حزيناً.

وفي الصباح... استيقظ واطسون متعباً، ويكاد يتجمد من البرد. ولفت اهتمامه حركة صغيرة، ورأى هولمز جاثياً على ركبتيه، يفحص

بعدسة مكبرة بعض ذرات التراب ويتحقق من علامات بالطباشير تكاد أن تمحي عبارة عن أرقام، وراح يدون تلك الأرقام في نوتته.

وفحص هولمز كل غرفة، ووجد في غرفتين أخريين نفس العلامات بالطباشير، ودائرتين فوق لوحين من الخشب وسهماً يشير إلى السقف، وأربعة أرقام فوق أربع درجات من السلم... وسأله واطسون بعد ساعة:

– الأرقام صحيحة... أليس كذلك؟

قال هولمز، وكانت هذه الأرقام قد غيرت طبعه:

– لا أدري إن كانت صحيحة، ولكنها تدل على شيء على كل حال.

قال واطسون:

شيء واضح تماماً... إنها تمثل عدد الألواح الخشبية بأرضيات الغرف. أما الدائرتان فتشيران إلى أن اللوحين مجوفين، والسهم يشير إلى المصعد الخاص بنقل أطباق الطعام.

نظر هولمز إليه مفتوناً وقال:

ولكن، كيف عرفت كل هذا يا صديقي العزيز؟ إن ذكاءك يجعلني أشعر بالخجل.

انتفخ واطسون من فرط السرور وقال:

– أوه... إن الأمر في غاية البساطة، فأنا الذي رسمت هذه العلامات أمس طبقاً لتعليماتك، أو بالحرى تنفيذاً لتعليمات أرسين لوبين، ما دامت الرسالة التي تلقيتها مرسلة منه هو.

ولعل واطسون لم يعرف أنه تعرض في تلك اللحظة إلى خطر أشد من الخطر الذي تعرض له في عراكه مع هولمز، فقد استبدت بهذا الأخير رغبة عنيفة في أن ينقض عليه ويخنقه... ولكنه تمالك نفسه ورسم على وجهه تكشيرة أرادها أن تكون ابتسامة وقال:

– حسن... حسن... هذا عمل رائع يفيدنا كثيراً... ولا يبقى أمامنا الآن إلا أن نغادر البيت.

– نغادر البيت.... وكيف؟

– بالطريقة العادية التي يتبعها أشراف الناس... من الباب.

– ولكنه مغلق.

– سوف يفتحونه لنا.

– من؟

– أرجو أن تتكرم وتنادي الشرطيين اللذين يمشيان على الرصيف.

– ولكن هذا أمر مهين... فماذا يقولون عندما يعلمون أن شرلوك

هولمز وأنا، مساعدك واطسون قد سجننا أرسين لوبين.

– وماذا تريد يا عزيزي؟ سيضحكون بملء أفواههم طبعاً. ولكن لا يمكننا أن نطيل إقامتنا هنا على كل حال.

– ألا تحاول شيئاً؟

– لا شيء.

– ومع ذلك فإن الرجل الذي جاءنا بسلة الطعام لم يعبر الحديقة، لا في قدومه، ولا في انصرافه... ومعنى هذا أنه يوجد مخرج آخر، فلنبحث عنه، وبذلك لا نحتاج لمساعدة الشرطة.

– منتهى العقل... ولكنك تنسى شيئاً واحداً، وهو أن ذلك المنفذ بحث عنه كل بوليس باريس منذ ستة شهور... وأنا نفسي بينما كنت أنت نائماً. إنني فحصت البيت من عاليه إلى أسفله... آه يا عزيزي واطسون... إن أرسين لوبين صيد لم نعتد عليه، فهو لا يترك خلفه أي أثر.

***

أطلق سراح شرلوك هولمز وواطسون في الساعة الحادية عشرة واقتيدا إلى أقرب مخفر للبوليس... وبعد أن استجوبهما المأمور بكل قسوة أخلى سبيلهما وهو يتصنع مجاملتهما بطريقة تثير الحنق حقاً ويقول:

– إنني آسف لما جرى لكما، وأخشى أن تأخذا فكرة سيئة عن الضيافة الفرنسية... يا لهذه الليلة التي قضيتهما، ويا لهذا اللوبين! إنه يفتقر إلى روح المجاملة حقاً.

واستقلا عربة إلى الفندق... وعندما طلب واطسون مفتاح غرفته قال له موظف الاستقبال:

– ولكنك تنازلت عنها يا سيدي.

– أنا... وكيف حدث هذا؟

– برسالة منك جاءنا بها صديق لك.

– أي صديق؟

– الصديق الذي أعطانا رسالتك... وهذه بطاقتك مرفقة بالرسالة.

أخذ واطسون البطاقة والرسالة.. كانت البطاقة من بطاقاته هو بالذات والخط الذي بالرسالة خطه هو نفسه فتمتم:

– يا إلهي!... هذا مقلب آخر حقير.

وأردف في قلق:

– والمتاع؟

– تسلمه صديقك.

– آه.... وهل سلمته له؟

– طبعاً... فقد قلت لنا ذلك في رسالتك.

– هذا صحيح... هذا صحيح.

وغادرا الفندق وسارا على غير هدى في الشانزليزيه، في صمت وبطء. وكانت شمس الربيع الصافية تضيء الشارع. والهواء نقياً عليلاً وفي الميدان أشعل هولمز غليونه ثم تابع سيره... وصاح واطسون:

– إنني لا أفهم يا هولمز؟ إنك شديد الهدوء... إنه يسخر ويلعب بك كما يلعب القط بالفأر، ولا تنطق بكلمة.

توقف هولمز وقال:

– إنني أفكر في بطاقتك يا واطسون.

– وبعد؟

– هذا الرجل، في توقعه النضال معنا حصل على نموذج من خطى وخطك... ويحتفظ في حافظته بإحدى بطاقاتك... هل تفهم ما في ذلك من حرص وإرادة حادة وخطة وتدبير؟

– أي؟

– أي أنه لمنازلة عدو مسلح بكل هذه الأسلحة وللتغلب عليه،

لابد أن يكون غريمة..... لابد أن يكون أنا.

وأرفد يقول:

– ثم إنك ترى يا واطسون لا يمكن أن نفوز من أول وهلة.

***

في الساعة الحادية عشرة نشرت جريدة إيكو دي فرانسي في طبعتها المسائية هذا الخبر:

أطلق مستر تيناردو مأمور مخفر الدائرة السادسة عشر سراح مسيو شرلوك هولمز ومساعده واطسون اللذين حبسهما أرسين لوبين في قصر الفقيد البارون دوتريك، وقضيا فيه ليلة ليلاء.

وقد قدما شكوى ضد (أرسين لوبين لأنه استولى على متاعهما – وقد اكتفى أرسين لوبين هذه المرة بتلقينهما درساً صغيراً ويرجوهما أن لا يضطره إلى اتخاذ تدابير أشد خطورة وقسوة...

قال شرلوك هولمز وهو يدعك الجريدة:

– أمور صبيانية! هذا هو اللوم الوحيد الذي أوجهه لأرسين لوبين...

يروق له أن يعرض تصرفاته الصبيانية على الجمهور... إن ذا

الرجل لشجاع حقاً.

قال واطسون:

– هكذا الأمر معك دائما يا هولمز... نفس الهدوء دائماً.

أجابه هولمز وصوته يغلي بغضب عنيف نفس الهدوء دائماً... ولماذا أثور؟ أنا على يقين تام بأن الكلمة الأخيرة ستكون لي.

***

٤ – ومضات في الظلام

رغم قسوة طباع هولمز وعدم اكتراثه لما قد يتعرض له من محن ونكبات فقد أحس في ذلك الوقت بأنه في حاجة إلى أن يجمع كل قواه قبل أن يواجه غريمه من جديد.

– سأمنح نفسي أجازة اليوم... أما أنت يا واطسون فعليك بشراء ثياب أخرى غير تلك التي استولى عليها لوبين.

– استرح يا هولمز فسوف أقوم بالحراسة.

– هو ذلك يا واطسون... وفي تلك الأثناء سأنتهز الفرصة لكي أعد خطة جديدة، فإنني أقدر لوبين حق قدره، ويجب أن نتولى الأمور من بدايتها.

– بل من قبل بدايتها! إذا أمكن.. ولكن هل يتسع الوقت؟

– أمامنا تسعة أيام يا صديقي، ومنها خمسة زائدة.

وقضى الإنجليزي طوال النهار في التدخين والنوم... ولم يبدأ نشاطه إلا في صباح اليوم التالي، إذ قال:

– إنني على استعداد يا واطسون... سنبدأ الآن.

تبادل هولمز مع الأستاذ دتنيان ثلاثة أحاديث طويلة، وكان قد قام بفحص [illegible] كنه قبل ذلك فحصاً دقيقاً، ومع سوزان جربوا، وكان قد اتص[illegible]اً واستفسر منها عن السيدة الشقراء، ومع الأخت أو[illegible] فرغ من كل ذلك قال لواطسون:

[illegible] يقين من أننا نتبع الأثر الصحيح.

وزارا البيتين المجاورين لبيت شارع هنري مارتن، ثم مضيا إلى شارع كلا بيرون... وقال هولمز وهو يفحص واجهة البيت رقم ٢٥.

– واضح أن هناك ممرات سرية بين كل هذه البيوت، ولكن الأمر الذي لا أفهمه... لأن المرء وهو يعمل مع هذا الشيطان لوبين إنما يعمل في فراغ وكيفما اتفق، وبدلاً من يستخرج الحقيقة من الواقع بالذات لابد له أن يستخرجها من ذهنه لكي يتحقق فيما بعد أنها تتطابق مع الأحداث.

– ومع ذلك فإن الممرات السرية.

– وبعد... إنني حتى إذا عرفتها، وعرفت الممر الذي استخدمه لوبين الدخول عند الأستاذ، أو ذلك الذي استخدمته الغادة الشقراء

بعد مقتل البارون دوتريك، فما الذي أستفيده؟...هل يزودني ذلك بأسلحة تمكنني من منازلته؟

ولم يكد يفرغ من كلماته هذه حتى ارتد إلى الوراء مسرعاً وهو يصرخ، فقد وقع عند أقدامهما كيس مملوء إلى النصف بالرمل، كان يمكن أن يصيبهما إصابة خطيرة.

ورفع هولمز عينيه فرأى فوقهما عمالا يشتغلون فوق سقالة معلقة بشرفة الطابق الخامس فقال:

– إننا محظوظان حقاً، فقد نجونا من الموت بأعجوبة...

وأمسك، ثم أسرع إلى البيت وصعد السلم واقتحم المسكن مسبباً ذعر الخادم، ومضى إلى الشرفة... لم يكن هناك أحد وسأل الخادم قائلاً:

– أين العمال الذين كانوا هنا؟

– إنهما انصرفا لتوهما.

– من أين؟

– من سلم الخدم.

انحنى هولمز، ورأى رجلين يخرجان من البيت وفي يد كل منهما دراجة ركبها كل منهما واختفيا.

– هل يعملون فوق هذه السقالة منذ وقت طويل؟

– هذان؟ منذ صباح اليوم فقط... لم أرهما قبل ذلك.

ولحق هولمز بواطسون وعادا إلى البيت وهما مكتئبان وانتهى اليوم الثاني في صمت مطبق.

نفس البرنامج في صباح اليوم التالي جلسا فوق دكة في شارع هنري مارتان... وقال واطسون وقد أضجره البقاء ساكناً أمام البيوت الثلاثة.

– ماذا تتوقع يا هولمز؟... أن يخرج لوبين من هذه البيوت؟

– كلا... ولكنني أرجو أن يقع حادث ولو تافه يمكن أن أبدأ منه.

– وإذا لو يقع؟

– سيحدث عندئذ شيء في ذهني... شرارة تنير لي الطريق.

وكان فارس يتمطى جواداً يمر بجواره في الشارع في هذه اللحظة وعندما اقترب منهما جمع الجواد فجأة واصطدم بالدكة التي يجلس عليها بحيث لمس ردف الجواد كتف هولمز فصاح:

– إيه... حذار يا هذا... أوشك جوادك أن يكسر ذراعي.

وكان الراكب يحاول تهدئة جواده... وأخرج الإنجليزي مسدسه وصوبه ولكن واطسون أسرع فأمسك بذراعه وهو يقول:

– هل جننت يا شرلوك؟... إنك ستقتل الرجل.

– دعني يا واطسون.... دعني.

ودار بينهما عراك استطاع الراكب أثناءه أن يهدئ جواده ويتلق به وقال واطسون والراكب يبتعد:

– حسناً يمكنك أن تطلق النار الآن.

– أيها الغبي... ألم تفهم أنك شريك لأرسين لوبين؟

وكان هولمز يرتجف من فرط الغضب... وتمتم واطسون وهو في حالة يرثى لها:

– ماذا تقول؟ ذلك السيد.

– شريك للوبين... كالعاملين اللذين أوقعا كيس الرمل علينا.

أهذا ممكن؟

ممكن أو غير ممكن، كانت أمامي فرصة للحصول على دليل.

– بل بأن أقتل الجواد.

ومر النهار كئيباً... في الساعة الخامسة، كان هولمز ومساعده يتسكعان في شارع كلا بيرون، وهما حريصان على الابتعاد عن المنازل عندما اصطدم بهما ثلاثة رجال يمشون ويغنون وهم متشابكو الأيدي لا يريدون

الانفصال عن بعض البعض... وكان هولمز متبرماً... فاعترضهم، وكان هناك عراك قصير، فاتخذ هولمز هيئة الملاكم وهوى بقبضته على صدر أحدهم وبقبضة أخرى على وجه الآخر، وبذلك تغلب على اثنين من الثلاثة الذين لم يطلبوا المزيد وأسرعوا بالفرار... وصاح:

– آه لقد أصابني ذلك بخير كبير، قد كانت أعصابي متوترة جداً... وأشعر الآن بالارتياح.

وإذ رأى واطسون معتمداً على الجدار صاح به:

– ماذا بك يا صديقي العزيز... ولماذا هذا الشحوب؟

أراه الصديق العزيز ذراعه المدلاة إلى جنبه وقال:

– لا أدري... إني أشعر بألم شديد في ذراعي.

– في ذراعك؟.... هل يؤلمك كثيراً؟

– نعم، نعم... ذراعي الأيمن.

لم يستطع أن يحركها رغم كل ما بذل من جهد... وجسها هولمز، في رفق في البداية، ثم بقوة وهو يقول:

– لكي أرى مبلغ الألم. وكان الألم فظيعاً حقاً بحيث إنه أحس بقلق كبير ودخل صيدلية قريبة، وشعر واطسون بأنه موشك على الإغماء.

وأسرع الصيدلي ومساعده إليهما، وتحققا أن الذراع مكسورة، وكان لابد من جراح ومن إجراء عملية، ونضوا عنه ثيابه فراح يصرخ من الألم. وقال هولمز... وهو يمسك بذراعه:

– تشجع يا صديقي... سوف تلتئم ذراعك بعد خمس أو ستة أسابيع. ولكنهم سيدفعون ثمن ذلك غاليا... هل تسمع؟ ولا سيما هو. لأنه هو ذلك اللوبين، رأس الشر الذي فعل ذلك.. آه.. أقسم لو أنه وقع في يدي...

وأمسك فجأة... وتخلى عن ذراع واطسون... وما كاد يفعل حتى يصرخ هذا الأخير من فرط الألم وأغمى عليه... وضرب هولمز جبينه بكف يده وقال:

– واطسون، لقد واتتني فكرة... ولكن هل يمكن أن يكون ذلك.. طبعاً هو ذلك، ففي هذا تفسير لكل شيء... إن المرء يبحث دائماً بعيداً عما هو قريب منه... ولعمري، كنت أعرف أنه ما على إلا أن أبذل جهدي وأفكر.

أظن أنك ستكون مسروراً يا واطسون.

وترك صديقه... وراح يعدو في الشارع حتى رقم ٢٢.

وهناك، وبجوار الباب، رأى حجراً منقوشاً عليه هذه الكلمات

«المهندس ديتانج، سنة ١٨٧٥».

ونفس الكلمات في رقم ٢٣.

وكان الأمر طبيعياً جداً حتى الآن... ولكن ماذا سيجد هناك، في شارع هنري مارتن؟

ومرت بي مركبة فاستقلها وطلب من السائق أن يسرع به إلى رقم ١٣٤. وبقى واقفاً في المركبة. وهو يحث الجواد ويمني السائق تاجر كبير أسرع وهناك، في رقم ١٣٤، فوق حجر بجوار الباب، كانت نفس الكلمات منقوشة المهندس ديتانج سنة ١٨٧٤.

وفي العمارتين المجاورتين نفس العبارة: ديتانج ١٨٧٤.

وكان من نتيجة الانفعالات التي أحس بها على أثر هذه الاكتشافات أنه تهالك بضع لحظات في المركبة وهو يرتجف من فرط الفرح. أخيراً لمع وميض في وسط الظلمات. وها هو قد وصل إلى أول أثر قمين بأن يقوده إلى العدو.

وأسرع إلى التليفون واتصل بقصر كروزون... يا سيدتي؟

– إنه احترق منذ ثلاثين سنة، وأعيد بناؤه بعد ذلك.

– من الذي بناه، وفي أية سنة؟

– هناك لوحة بالباب بها هذه العبارة «المهند ديتانج سنة ١٨٧٧».

– شكراً سيدتي.

وانصرف وهو يتمتم:

– ديتانج... هذا الاسم ليس غريبا علي.

ودخل مكتبة عامة، وقرأ في دائرة معارف حديثة نبذة عن لوسيان ديتانج دونها في مذكرته وهذا نصها:

لوسيان ديتانج مولود سنة ١٨٤٠، حائز على جائزة روما ووسام جوفة الشرف، وواضع مؤلفات عديدة في الهندسة.

وعاد بعد ذلك إلى الصيدلية، ومنها إلى المستشفى الذي نقل إليها واطسون، وكان هذا الأخير طريحاً فوق الفراش وذراعه في جبيرة، ويرتجف من الحمى ويهذي. وقال له:

– انتصرنا. انتصرنا. لقد وقعت على خيط سوف يقودني إلى النهاية سأستطيع الآن أن أمشي على أرض صلبة فيها بصمات وأدلة... إنني اكتشفت الرابطة الغامضة التي تربط مغامرات السيدة الشقراء بعضها ببعض، ولما اختار لوبين البيوت الثلاثة التي وقعت بها تلك المغامرات.

– ولماذا؟

– لأن هذه البيوت الثلاثة بناها نفس المهندس يا واطسون ستقول إن من السهل معرفة ذلك... ولكن لم يفكر فيه أحد.

– فيما عداك أنت.

– فيما عداي أنا، فأنا أعرف الآن أن نفس المهندس استطاع بخطة بارعة أن ينجز ثلاثة أعمال خارقة في ظاهرها وبسيطة وسهلة في الواقع.

– هذا عظيم.

– وهذا لحسن الحظ أيها الصديق العزيز، فقد كدت أفقد صبري لأن هذا هو اليوم الرابع.

– ولم يبق غير ستة أيام.

– هذا صحيح.... وعلينا أن نستفيد من هذا الدرس، فقد أخطأنا بمنازلة لوبين على المكشوف، وأن نتعرض لضرباته. وعلى الآن أن ألعب في الخفاء وأن أكون حراً في حركاتي فإنني بذلك أتميز عليه مهما تكن قوته.

– في مقدور جانيمار أن يساعدك.

– أبداً... في اليوم الذي أستطيع أن أقول فيه: أرسين لوبين هنا، وهذا مخبأه، وأن في استطاعتي أن أقهره فسأذهب عندئذ إلى جانيمار في أحد

العناوين اللذين أعطاهما لي، وحتى ذلك الوقت فسوف أعمل وحدي.

***

– هل مسيو ديتانج موجود؟

صعد الخادم عينيه في الرجل الذي يقف بالباب... كان قصير القامة أشيب الشعر غير حليق، جاكتته الطويلة السوداء رثة ولا تنسجم مع جسمه الغريب الهيئة والذي مسخته الطبيعة... وقال في ازدراء:

– هو موجود أو غير موجود، حسب الظروف... هل معك بطاقة؟

لم يكن مع الرجل بطاقة ولكن كان معه خطاب توصية... واضطر الخادم أن يمضي إلى مسيو ديتانج الذي أمر بإدخال الزائر على الفور.

واقتيد الرجل إلى غرفة كبيرة دائرية الشكل تكسو الكتب جدرانها. وسأله المهندس:

– هل أنت مستر ستيكمان؟

نعم يا سيدي.

– يقول لي سكرتيري إنه مريض، ويرسلك لإتمام الفهرس العام للكتب الذي بدأه تحت إملائي، وعلى الأخص الكتب الألمانية، فهل لك خبرة في هذا المجال؟

أجاب ستيكمان في لهجة ألمانية:

- نعم يا سيدي، خبرة طويلة.

- اتفقنا إذن.

وراح مستر ديتانج يباشر عمله مع سكرتيره الجديد.

وهكذا دخل شرلوك هولمز المكان.

فلكي يفلت البوليس السري الشهير مع مراقبة لوبين، ويدخل البيت الذي يقيم فيه لوسيان ديتانج مع ابنته كلوتيد، اضطر أن يغوص في المجهول وأن يقوم ببعض الخدع وأن يجمع طائفة من الشهادات من أناس مختلفين وأن يختلق لنفسه شخصية وهمية... وكان يعرف أن مسيو ديتانج رجل لا يتمتع بصحة جيدة، ولرغبته في الراحة والاستجمام اعتزل العمل ويعيش الآن بين مجموعات كتبه الهندسية.

أما ابنته كلوتيد، فكانت معروفة بغرابة أطوارها، وتعيش في عزلة دائمة كأبيها، ولا تخرج أبداً.

وقال يحدث نفسه وهو يدون في السجل عناوين الكتب التي يمليها عليه مسيو ديتانج:

- كل ذلك يدل على شيء أكيد بعد... ولكنها خطوة إلى الأمام على

كل حال... وأنه لمن المستحيل أن لا أكتشف حل إحدى هذه المسائل المثيرة أيكون مسيو ديتانج شريكاً لأرسين لوبين؟... وهل لا يزال يراه؟.... وهل هناك أوراق خاصة بتلك البيوت الثلاثة؟ أولاً تهديني تلك الأوراق إلى بيوت أخرى مبنية بنفس الطريقة ويحتفظ بها لوبين لنفسه هو وعصابته؟

مسيو ديتانج شريك لأرسين لوبين؟ هذا الرجل المحترم، الحائز على وسام جوق الشرف يعمل مع لـص؟... كانت النظرية غير مقبولة... ثم، على فرض أنه شريك لأرسين لوبين فكيف استطاع أن يتوقع قبل ذلك بثلاثين سنة هروب أرسين لوبين وقد كان في ذلك الوقت لا يزال رضيعاً؟

ومع ذلك فقد أحس الإنجليزي أن هناك شيئاً يحوم حوله... وكان ذلك يبدو من نقاط صغيرة لم يستطع تحديدها، ولكنه أحس بها منذ أن دخل البيت.

وفي صباح اليوم التالي لم يكن قد اكتشف شيئاً بعد. وفي الساعة الثانية رأى كلوتيد لأول مرة... وكانت قد أقبلت تبحث عن كتاب في المكتبة وكانت امرأة في الثلاثين من عمرها، سمراء ثقيلة الحركة وصامتة، يبدو على وجهها أمارات عدم الاكتراث.... وتبادلت ببضع

كلمات مع أبيها ثم انصرفت من غير أن تلقي نظرة إلى هولمز.

ومضى اليوم رتيباً من غير أحداث حتى الساعة الخامسة، إذا أعلن مسيو ديتانج أنه خارج... وبقى هولمز لحظة في المقصورة الدائرية الملحقة بغرفة المكتبة... وبدأ نور النهار يخبو وتأهب للانصراف هو الآخر عندما سمع طقطقة... وأحس في نفس الوقت بأن شخصا دخل الغرفة... ومضت الدقائق، وأجفل فجأة، فقد برز شبح بجواره في الشرفة... واستغرب هولمز، فمنذ متى وهذا الشخص موجود، ومن أين أتي.

وهبط الشبح الدرج ومضى نحو دولاب، واختفى هولمز خلف ستار وأخذ يراقبه... ورآه يفتش بين الأوراق في الدولاب، فعم يبحث.

وفجأة انفتح الباب ودخلت كلوتيد وهي تحدث شخصاً خلفها:

- أنت لم تخرج إذن يا أبت.... ما دام الأمر كذلك فسأضيء النور.

***

أغلق الرجل مصراعي الدولاب واختبأ خلف ستارة النافذة، فكيف لم تره كلوتيد، وكيف لم تسمعه... وأدارت مفتاح النور في هدوء ثم أفسحت المكان لأبيها، وجلس كل منهما بجوار الآخر... وفتحت

كتاباً كانت قد جاءت به معها وراحت تقرأ... وقالت بعد لحظة:

– أما زال سكرتيرك هنا.

– كلا. إنه انصرف.

وقالت كما لو أنها تجهل مرض السكرتير الحقيقي وقدوم ستيكمان محله.

– أو مازلت راضياً؟

– نعم، نعم.

وراحت رأس مسيو ديتانج تهتز ذات اليمين وذات اليسار، ثم غلبه النعاس.

ومرت لحظة والفتاة تقرأ.... ولكن الرجل أزاح الستارة عن النافذة، وتسلل بمحاذاة الحائط حتى الباب، ومر خلف مسيو دتيانج وأمام ابنته بالذات بحيث رآه هولمز تماماً، كان أرسين لوبين.

سرت في بدن الإنجليزي رعشه من فرط السرور، فقد تحقق من صدق نظريته... ودخل في قلب القضية الغامضة، ووجد لوبين حيث توقع.

ولم تتحرك كلوتيلد، رغم أنه كان من الواضح أنه لم تفتها حركة واحدة من حركات الرجل... ولمس لوبين أكرة الباب تقريباً وهم بأن يديرها عندما احتك طرف جاكتته على المنضدة فوقع، واستيقظ

مسيو ديتانج مذعوراً، ولكن أرسين لوبين كان قد أسرع ووقف أمامه، وقبعته في يده وهو يبتسم... وهتف مسيو ديتانج:

– أأنت هنا يا مكسين برمون؟.... هذا العزيز برمون.... ما الذي جاء بك؟

– أردت أن أراك... وأن أرى الآنسة ديتانج.

– إذن فقد عدت من رحلتك.

– نعم، عدت بالأمس.

– وهل تبقى لتناول العشاء؟

– كلا فسوف أتعشى في المطعم مع بعض الأصدقاء.

– غداً إذن....ألحي عليه يا كلوتيلد لكي يأتي غداً.. شد ما أنا مسرور برؤيتك... كنت أفكر فيك بالذات هذه الأيام الأخيرة، فقد كنت أرتب بعض الأوراق القديمة في هذا الدولاب، وعثرت على كشف الحساب القديم.

– أي كشف حساب؟

– كشف حساب شارع هنري مارتن.

– كيف ذلك؟ أما ذلك؟ أما زالت تحتفظ بتلك الأوراق القديمة...

ولكن لم تعد لها أية قيمة.

وانتقل الثلاثة إلى غرفة استقبال صغيرة ملحقة بغرفة المكتبة وقال هولمز يحدث نفسه وقد خامره شك مفاجئ:

– أهو أرسين لوبين؟

نعم... إنه هو.. هو أرسين لوبين بالتأكيد... ومع ذلك فقد كان رجلاً آخر... يشبه لوبين في بعض النقاط، ويحتفظ مع ذلك بشخصيته وملامحه ونظرته ولون شعره.

وكان لوبين يتكلم في مرح ويروي لمسيو ديتانج أقاصيص تثير ضحكه، وكلوتيلد تصغى إليه وعلى شفتيها ابتسامة تفصح عما في قلبها... وقال هولمز يحدث نفسه:

– إنهما عاشقان... ولكن أتراها تعرف أن هذا المكسيم درمون هو أرسين لولبين؟

وراح يصغى إليهم حتى الساعة السابعة ثم انصرف في حذر بحيث لم يره أحد.

وفي الخارج، تحقق هولمز أنه ليست هناك سيارات أجرة ولا مركبات. ولكنه عندما بلغ الشارع الجانبي، ارتدى معطفه الذي كان يحتفظ به فوق ذراعه وقلب قبعته ووضعها فوق رأسه واعتدل في

وقفته، وبهذا تغير شكله تماماً... ثم عاد إلى الشارع واختفى في مكان منه وانتظر.

غادر أرسين لوبين البيت بعد قليل، وسار في طريقه إلى وسط باريس، ومن خلفه شرلوك هولمز.

***

كاد هولمز يطير فرحاً فقد بدا له كأنه يعيش في حلم وهو يقتفي خطوات لوبين، ولكنه لم يلبث أن لفت نظره شيء آثار خوفه، ففي المسافة التي تفصله عن أرسين لوبين كان هناك ثلاثة أشخاص آخرون يسيرون في نفس الاتجاه، وعلى الخصوص رجلان طويلا القامة يلبسان قبعتين مستديرتين ورجلان آخران يسيران فوق الرصيف المقابل... ولعلها كانت مجرد صدفة ولكن الأمر الذي أدهش هولمز هو أن لوبين دخل محلا لبيع السجائر فتوقف الرجال الأربعة على الفور، ثم استأنفوا السير عندما خرج... وقال يحدث نفسه:

– اللعنة... إذن فهناك من يتبعه... هل يعلم جانيمار أكثر مما صرح به أتراه يهزأ بي.

وود أن يعترض أحد الرجال الأربعة وأن يتشاور معه... ولكنهم كانوا قد اقتربوا من الميدان، حيث المكان أكثر ازدحاماً، وخشى أن يفقد

أثر لوبين وانعطف إلى شارع جانبي حيث رأى لوبين يصعد الدرجات الأمامية للمطعم الهنغاوي بناصية شارع هلدر... وكان الباب مفتوحاً فاستطاع أن يراه وهو جالس فوق دكة بالميدان ينضم إلى ثلاثة رجال في ثياب السهرة وسيدتين أنيقتين يجلسون حول مائدة فاخرة عليها فازات مملوءة بالزهور، ورآهم يستقبلونه جميعاً في ود وترحاب.

بحث هولمز بعينيه عن الرجال الأربعة، فرآهم مندسين بين بعض الجماعات يستمعون إلى الموسيقى، في مقهى مجاور... والغريب أنهم كانوا لا يهتمون بأرسين لوبين في الظاهر، وإنما بالناس الذين يحيطون بهم.

ولم يلبث أحدهم أن أخرج سيجارة من جيبه، واقترب من رجل يرتدي جاكت طويل وقبعة عالية... وقدم الرجل سيجارة المشتعل إلى صاحب السيجارة ولكن خيل إلى هولمز بأنهما يتحدثان وأن حديثهما طال أكثر من الوقت اللازم لإشعال السيجارة... وأخيراً مضى الرجل ذو القبعة العالية إلى المطعم وتقدم إلى لوبين وتبادل معه بضع كلمات ثم جلس إلى مائدة مجاورة ورأى هولمز عندئذ أن ذلك الرجل لم يكن إلا فارس شارع هنري مارتن.

وفهم عندئذ لم يكن أرسين لوبين متبوعاً، وإنما هؤلاء الرجال الأربعة من أتباعه، يحرصون على سلامته ويتبعونه أينما يذهب، على

استعداد للدفاع عنه وحمايته.

سرت رعشة في بدن الإنجليزي... هل في مقدوره والحالة هذه أن يتغلب على لوبين بمفرده وأن يلقي القبض عليه؟ إنه ما أن يتقدم إليه حتى يهرع إليه الرجال الأربعة ويشلون حركته... حقاً إن لوبين رجل خطير يعرف كيف يدير شئونه.

انتزع ورقة من مفكرته سطر عليها بضع كلمات ووضعها في مظروف وقال لصبي في الخامسة عشرة من عمره، كان يجلس على الدكة بجوار:

- اركب عربة يا بني وامض بهذا الخطاب إلى صرافة الحانة السويسرية بميدان شاتليه... أسرع.

وأعطاه خمس فرنكات... فأسرع الصبي بالاختفاء.

***

كان الزحام على أشده بعد ساعة، ولم يعد هولمز يتبين الرجال الأربعة ولكن اقترب منه شخص، ويسمع صوتاً يهمس في أذنه:

- ما الخبر يا مستر هولمز؟

- آه... أهذا أنت يا جانيمار؟

– إنني تسلمت رسالتك في الحانة السويسرية، فماذا هناك؟

أرسين لوبين في المطعم... هناك إلى اليمين.

– ولكن هذا ليس أرسين لوبين.

– بل هو.

– ولكنني أقول لك... آه... يا له من وغد! إنه يشبهه حقاً. والآخرون، أهم شركاء له؟

– كلا... إن الجالسة إلى جواره هي الليدي كليفدن، أما الأخرى فهي الدوقة دي كليث، والجالس أمامه هو سفير أسبانيا في لندن.

تقدم جانيمار خطوة، ولكن هولمز أمسك به وهو يقول:

– ما هذه الحماقة أنت وحدك.

– وهو كذلك.

– كل... هناك رجال في الميدان يسهرون على حمايته... ثم ذلك الرجل داخل المطعم....

وأنا أيضاً، عندما أمسك بتلابيبه وأقول بصمت مرتفع:

– هذا أرسين لوبين، فسوف يؤازرني الجميع.

– أنت وشأنك... ولكن حاول أن يعرفك من في المقهى في أسرع

وقت.

وتسلل هو نفسه خلف كشك لبيع الجرائد، ولم يفارق بعينيه أرسين لوبين، وكان منحنياً نحو جارته ويحدثها.

عبر المفتش الشارع وقد دس يديه في جيبه كرجل يمشي قدماً إلى حيث يشاء، ولكنه ما كاد يصل إلى الإفريز المقابل حتى أسرع وارتقى الدرجات الأمامية وثباً.

دوى صفير... وارتطم جانيمار برئيس الخدم الذي وقف فجأة بالباب، واعترض طريقه، وراح يدفعه إلى الخارج محنقاً كما لو كان يدفع صعلوكا لا يمكن أن يختلف إلى ذلك المكان.. وترنح جانيمار، وفي نفس اللحظة خرج الرجل ذو الجاكت الطويل، وانحاز إلى جانب جانيمار، وراح الاثنان هو ورئيس الخدم، يتنازعان جانيمار بكل عنف، فيحتجزه أحدهما ويدفعه الآخر بحيث إن المسكين، رغم احتجاجاته الشديدة، وجد نفسه أخيراً عند أسفل الدرجات الأمامية.

وتجمع الناس على الفور، وأقبل شرطيان، وقد أثارتهما الضجة وحاولا تفريق الجمهور، ولكنهما وجدا معارضة شديدة جمدت جهدهما بعض الوقت... وفجأة كما لو بسحر ساحر، تفرق الناس، وراح رئيس الخدم يعتذر وتخلى صاحب الجاكت الطويل... عن مؤازة

جانيمار واندفع هذا الأخير إلى المائدة، حيث يجلس الأشخاص الستة ولكنه لم يجد غير خمسة، وتلفت حوله... لم يكن هناك من منفذ غير الباب... وقال يسأل الأشخاص الخمسة المشدوهين:

– أين الرجل الذي كان يجلس على هذا المقعد... أين الرجل الثالث:

– مسيو دسترو؟..

– كلا، وإنما أرسين لوبين.

واقترب جرسون وقال:

– لقد صعد ذلك السيد إلى الطابق الأول.

أسرع المفتش... كان بالطابق الأول غرف خاصة وله باب خاص يؤدي إلى الخارج... فهتف في غيظ: من لي به الآن؟

***

ولكنه لم يكن بعيداً وإنما على بعد مائتي متر على الأكثر، في الأوتوبيس المنطلق إلى ميدان المادليني... ووقف في مقدمة الأوتوبيس رجلان راحا يتحدثان في حين جلس بعيداً، في الخلف، رجل عجوز يبدو أنه يغالب النعاس... ولم يكن ذلك الرجل العجوز غير شرلوك

هولمز، فما أن سمع الصفارة حتى أسرع إلى الباب الخلفي للمطعم متوقعاً أن لوبين قد يهرب منه وقد صح حدسه، فقد أسرع أرسين لوبين بالخروج منه، بينما كان جانيمار يبحث عنه في الداخل، ورجاله يحرسون الباب الخارجي وقال هولمز يحدث نفسه:

- لو أن واطسون رآني الآن لكان فخوراً بي.

وهبط لوبين في آخر الخط واقترب من الرجلين وقال:

- ميدان الأتوال... واستقل سيارة أجرة فقال هولمز:

- إذن فالموعد في الأتـوال... فلأتركه يمضي ويكفيني أن أتبع الرجلين.

وسار الرجلان، حتى ميدان الأتوال، وطرقا باب البيت رقم ٤٠ بشارع شاجران، واختبأ شرلوك هولمز في ركن مظلم وانتظر.

وبعد عشر دقائق أقبل رجل ثالث، ثم آخر بعده على الفور تقريباً، وأخيراً وقفت مركبة هبط منها أرسين لوبين وسيدة ترتدي معطفاً كثيفاً وتضع على وجهها نقاباً... فقال هولمز يحدث نفسه:

- السيدة الشقراء دون ريب.

وانتظر لحظة ثم اقترب من البيت وتسلق حافة النافذة، وألقى نظرة

إلى الداخل... كان أرسين لوبين متكئاً على المدفأة، ويتكلم في انفعال وكان الآخرون يقفون حوله، ويصغون إليه في اهتمام، وكان بينهم رئيس الخدم بالمطعم... أما الغادة الشقراء فكانت توليه ظهرها.

وتحرك أحد الرجال فوثب هولمز إلى الأرض، واختبأ في جوف الظلام وخرج رجلان، وأضيء النور على الفور في الطابق الأول، وأغلق أحدهم النافذة، فساد الظلام في أرجاء البيت كله، وقال هولمز:

– بقى هو وهي في الطابق الأرضي أما الشريكان الآخران فقد بقيا فوق وانتظر بعض الوقت وهو لا يتحرك، مخافة أن يخرج أرسين لوبين أثناء غيابه، وفي الساعة الرابعة رأى رجلين من رجال الشرطة في آخر الشارع فأسرع إليهما وأطلعهما على الموقف وأمرهما بمراقبة المكان ثم مضى إلى جانيمار وقال له:

– لقد وقع أرسين لوبين في أيدينا.

وكانت خيوط الليل قد بدأت تتراجع أمام خيوط النهار عندما أتم جانيمار استعداداته... وطرق الباب العمومي... وأجابت البوابة وهي مذعورة على أسئلته، فصاح:

– ماذا تقولين؟ لا أحد يقيم بالطابق الأرضي؟

– كلا... فإن السيدين ليرو قاما بتأثيثه وبخصصانه لأهلهما إذا ما

أقبل أحدهم من الريف.

– وهل جاء أحد منهم بالأمس؟

– ربما... كنت نائمة... ولكني لا أعتقد، فالمفتاح معي ولم يطلبه أحد.

– أخذ جانيمار المفتاح وفتح الباب... ولم يكن بالطابق الأرضي غير غرفتين ولم يكن بهما أحد... وصاح هولمز:

– هذا مستحيل. إنني رأيتهما معاً.

وصعدا السلم... ودق المفتش الجرس... وفي المرة الثانية ظهر أحد الرجلين وهو بثياب النوم وقال محنقاً:

– حقاً... ما هذه الضجة. ألا يمكن أن ينام أحد في هدوء:

ولكنه أمسك على الفور وقال في ارتباك:

– عفواً. أعتقد أنني لا أحلم... من أرى؟... مسيو جانيمار! أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك؟

انفجر المفتش ضاحكاً وهتف في استغراب. أهذا أنت يا ليرو... ولكن هذا غريب... ليرو شريك أرسين لوبين... آه... ما أغربها مزحة... وأخوك ليرو... أهو موجود؟

– هل أنت هنا يا أدمون... إن مسيو جانيمار يسأل عنك.

وظهر رجل آخر، فراح جانيمار يضحك في جنون ثم تحول إلى هولمز وقال له:

– أقدم إليك فيكتور ليرو المفتش بإدارة الأمن، وهو من خيرة رجالنا، وأدمون ليرو باشكاتب بإدارة تحقيق الشخصية.

***

٥ – اختطاف

تقبل لهوطز الأمر بكل برود، إذ لم يجد فائدة من الاعتراض أو اتهامهما بأنهما من أعوان لوبين لأنه رأى إن فعل فلن يجنى أكثر من سخرية جانيمار وتهكمه.. فانحنى أمام الأخوين ليرو فى احترام ثم انسحب.

وفى البهو رأى حجرًا صغيرًا من العقيق، أحمر اللون بجوار الباب المؤدى إلى البهو فالتقطه.. وفى الخارج قرأ على باب البيت المجاور الرقم ٤٠ نفس العبارة المعهودة (لوسيكان ديتانج، سنة ١٨٧٧)، ورآها فى البيت رقم ٤٤ فأيقن أن بين البيوت الثلاث ممرًا سريًّا، وقال يحدث نفسه:

– كان يجب أن أبقى مع الشرطيين طوال الليل.

واقترب من الشرطيين وسألهما:

- ألم يخرج شخصان من هذا البيت أثناء الليل؟

- خرج رجل وامرأة.

أمسك بذراع جانيمار وقال له:

- إنك ضحكت على كثيرا، وحقدت على لإزعاجى إياك.. مضى على وجودى هنا سبعة أيام، ومن الضرورى فى لندن بعد ثلاثة أيام، ولهذا أرجوك أن تكون على بعد مساء يوم الثلاثاء.

- على استعداد لأى شىء؟

- للقبض على أرسين لوبين، وأقسم لك بشرفى على ذلك.

ثم حياه وانصرف، ومضى إلى مطعم صغير مجاور.. وبعد أن أكل وشبع عاد إلى شارع شاجران، ودس جنيهين فى يد البوابة، وتأكد أن الأخوين ليرو خرجا، وأخذ شمعة وهبط إلى القبو من الباب الذى وجد أمامه حجر العقيق الصغير الأحمر.. وفى أسفل السلم وجد حجرا آخر مشابها فقال:

- أنا لم أخطئ.. إن الممر السرى بين البيوت الثلاثة يبدأ من هنا.

وعالج الباب بطفاشته، وما أن دخل حتى رأى آثار أقدام فوق الأرض، ولم يلبث أن سمع حركة فأسرع وأغلق الباب، وأطفأ الشمعة واختبأ خلف أحد البراميل.. وبعد بضع لحظات رأى أحد الألواح الحديدية يدور فى رفق كاشفا عن فتحة فى الجدار، انبعث منها ضوء مصباح، وظهر ذراع ثم دخل رجل.. وانحنى الرجل وراح يبحث بيديه فى التراب عن شىء، ونهض أكثر من مرة وهو يضع شيئًا فى علبة صغيرة معه، ثم محا أثر قدميه وآثار أقدام لوبين والسيدة الشقراء.. واقترب من الجدار.

وانبعث منه صرخة فجأة، فقد انقض عليه هولمز، وما هى إلا دقيقة حتى رأى الرجل نفسه طريحا فوق الأرض موثق اليدين والقدمين.. وانحنى الإنجليزى فوقه وقال:

- كم تريد لكى تتكلم؟

لم يزد الرجل عن أن يبتسم ابتسامة ساخرة أدرك منها هولمز أن لا فائدة من استجوابه، ففتش جيوبه ولم يجد معه غير حلقة مفاتيح ومنديل والعلبة الصغيرة التي وضع فيها أحجار العقيق.. ولم يدر ماذا يفعل بذلك الرجل.. هل ينتظر أن يأتى أصحابه لنجدته ويسلمهم جميعا للبوليس؟ ولكن ما الجدوى من ذلك، وما الذى يستفيده.

وكان لا يزال يتردد عندما وقع بصره على عنوان الجوهرى المكتوب على العلبة ليونار، جوهرى بشارع دى لابيه.

وقرر أن يترك الرجل، فأعاد اللوح الحديدى وأغلق القبو، وغادر البيت وأرسل برقية إلى مسيو ديتانج يخبره فيها بأنه لن يستطيع القدوم الليلة، ثم مضى إلى الجوهرى، وأعطاه أحجار العقيق وهو يقول:

- أعطتنى السيدة هذه الأحجار.. إنها انفصلت عن عقد اشترته منك.

ورأى هولمز أنه أصاب بقدومه لأن الرجل قال له: الواقع أن السيدة اتصلت بى، وستأتى بنفسها بعد قليل.

ولم تأت السيدة إلا بعد الساعة الخامسة.. وكان هولمز واقفا فوق الإفريز عندما رأى سيدة تخفى وجهها بنقاب كثيف بدا له مسلكها مريبا.

ومن خلال زجاج المحل رآها تضع على المكتب جوهرة قديمة محلاة بأحجار العقيق.

وخرجت على الفور تقريبًا، وعرجت على بعض المحال، بشارع كليش وبشوارع أخرى لا يعرفها، وعند هبوط الليل دخل خلفها، دون أن يحفل بالبواب، بيتا من خمسة طوابق ودخلت مسكنا بالطابق الثانى، وبعد دقيقتين، جرب الإنجليزى خطة، وحاول أن يفتح الباب

بأحد المفاتيح التى بالحلقة التى استولى عليها من الرجل.. ودار المفتاح الرابع فى القفل، وانفتح الباب.

رأى فى الظلام الذى يحوطه غرفا شاغرة تمامًا، كما لو أن المسكن غير مأهول، وأبواب الغرفة مفتوحة، ولكن انبعث نور مصباح فى آخر الممر، فاقترب، ورأى من خلال لوح الزجاج الذى يفصل الصالون عن غرفة مجاورة السيدة المقنعة تنفض عنها ثوبها وقبعتها وتلقيهما على المقعد الوحيد تدنو من المدفأة وتضغط على زر فتحرك اللوح الذى يمتد على يمين المدفأة، كاشفا عن فجوة فى الجدار، مرت فيها السيدة واختفت وبيدها المصباح.. وتبعها هولمز وهو يتحسس طريقه فى الظلام.. ولكن لم تلبث أن لمست وجهه أشياء لينة فأشعل عودًا من الثقاب، ورأى أنه فى دولاب مملوء بثياب معلقة، فأفسح لنفسه مكانا وتوقف أمام ستارة، وكان عود الثقاب قد انطفأ ورأى النور من خلال قماش الستارة.. وألقى نظرة عندئذ، فرأى السيدة الشقراء أمامه، على قاب قوسين منه.. وأطفأت المرأة نور المصباح وأضاءت النور الكهربى، وعندئذ رآها هولمز تماما.

وأحفل على الفور فإن المرأة التى ظل يبحث عنها اهتدى إليها أخيرًا بعد طول عناء لم تكن إلا كلوتيلد ديتانج.

كلوتيلد ديتانج، قاتلة البارون دوتريك وسارقة الماسة الزرقاء.. كلوتيلد ديتانج الصديقة الغامضة لأرسين لوبين.. السيدة الشقراء أخيرًا.

وقال يحدث نفسه:

- نعم، نعم، ما أغبانى! لأن صديقة لوبين شقراء وكلوتيلد سمراء لم يخطر ببالى لحظة واحدة أنهما امرأة واحدة، فلم يكن من المعقول أن تبقى الغادة الشقراء شقراء بعد مقتل البارون وسرقة الماسة.

وانفتح باب خلف كلوتيلد، ودخل أرسين لوبين.

تبادلا النظر طويلا دون أن ينطقا بكلمة واحدة، ثم جثا بجوارهما وضم رأسها إلى صدره، وأحاطها بذراعيه فى رفق وحنو وعطف.. ولم يتحركا جمع بينهما صمت رقيق، والدموع تترقق من مآقيهما، وتمتم لوبين:

- كنت أتمنى أن أجعلك سعيدة.
- ولكننى سعيدة؟
- كلا، ما دمت تبكين.. إن دموعك تشجينى يا كلوتيلد.

ارتسمت على وجهها ابتسامة خففت من صرامته، ولكن الحزن كان لا يزال باديا فتوسل إليها قائلا:

- اطرحى عنك هذا الحزن يا كلوتيلد.. لا يجب أن تكونى حزينة.

بسطت إليه يديها الرقيقتين وقالت فى لهجة خطيرة.

- طالما بقيت يداى هاتان سأظل حزينة يا مكسيم، فقد قتلا رجلا.

صاح مكسيم:

- اسكتى.. اطرحى هذه الأفكار عنك، لقد مات الماضى وطواه النسيان.

وراح يقبل يديها الطويلتين الشاحبتين.. ونظرت إليه وقد أشرق وجهها، كما لو أن كل قبلة تمحو شيئًا من الذكرى، وقالت أخيرا:

- يجب أن تبقى على حبى يا مكسيم فما من امرأة ستحبك مثلى.. ولكى أرضيك فعلت كل ما فعلت، وما زلت أفعل لا انصياعا لأوامرك وإنما طبقا لرغباتك السرية.. إننى مازلت أقدم على أفعال يأباها ضميرى، ولكننى لا أستطيع مقاومتها.. كل ما أفعله إنما أفعله بطريقة آلية لأن هذا مفيد لك ولأنك تريده..

وأنا على استعداد لأن أبدأ من جديد.. وكل يوم.

وقال فى مرارة:

- آه، لماذا أشركتك فى حياتى الحافلة بالمغامرات يا كلوتيلد؟ كان يجب أن أبقى بالنسبة لك مكسيم برمون الذى أحببته منذ خمس سنوات وأن لا أعرفك بالرجل الآخر الذى يعيش بين جوانحى.

قالت فى صوت خافت:

- ولكننى أحب ذلك الرجل الآخر، ولست نادمة على شىء.
- بل أنت نادمة على حياتك السابقة.. حياة الطهر والنقاء.

قالت فى وله:

- أنا لا أندم على شىء وأنت هنا معى.. فلا أعرف معنى الإثم ولا معنى الذنب عندما تراك عيناى.. لا يهمنى شقائى ولا آلامى ولا بكائى ولا ارتياعى من كل ما أفعل، فإن حبك يمحو كل شىء.. إننى راضية بكل شىء ويجب أن تبقى على حبى.
- إننى لا أحبك يا كلوتيلد لأنه يجب أن أفعل وإنما أحبك بسبب واحد وهو إننى أحبك فعلا.. ولكن حياتى عنيفة ومحمومة،

ولم أستطع أن أكرس وقتى لك كما أريد.

نظرت إليه مرتاعة وقالت:

- ماذا هناك؟.. أخطر جديد؟.. تكلم.
- أوه لا شىء خطير بعد.. ولكن هولمز يتعقبنا، فهو الذى أطلق جانيمار خلفى فى المطعم الهنغارى، وهو الذى أوقف شرطيين لحراسة شارع شاجران، ولدى الدليل على ذلك، وقد فتش جانيمار البيت صباح اليوم، وكان هولمز برفقته.. ثم..
- ثم؟.. ماذا أيضا؟
- أحد رجالى مفقود.. وهو المدعو جانيو.
- البواب؟
- نعم.
- ولكننى أرسلته هذا الصباح ليجمع لى أحجار العقيق التى وقعت من عقدى.
- لا شك أنه وقع فى قبضة هولمز.
- أبدًا، فإن الأحجار وصلت إلى الجوهرى بشارع دى لابيه.
- ماذا حدث إذن؟

- أوه.. إننى خائفة يا مكسيم.
- ليس هناك ما يدعو إلى الخوف.. ولكننى أعترف أن الموقف جد خطير، فما الذى يعرفه هولمز وما الذى لا يعرفه.. إن قوته تكمن فى أنه يعمل بمفرده، ولا يمكن لشىء أن يخونه، ولابد لنا من أن نحتاط يا كلوتيلد، كنت قد عزمت منذ وقت طويل على تغيير محل إقامتى، وأن أنتقل هناك فى المخبأ المنيع الذى تعرفينه، ولكن تدخل هولمز جعلنى أتسرع فى اتخاذ القرار.. فعندما يتبع رجل مثله أثرًا فإنه لا يتخلى عنه حتى يصل إلى نهايته ولهذا أعددت كل شىء.. فبعد غد، الأربعاء سيتم نقل كل شىء، وسأنتهى من كل شىء ظهرا، وأستطيع أن أغادر المكان فى الساعة الثانية.. بعد أن أمحو كل أثر لى، وهذا ليس بالعمل الهين، ومن هنا حتى ذلك الوقت لا يجب أن يرى أحدنا الآخر ولا يجب أن يراك أحد يا كلوتيلد.. لا تخرجى يا كلوتيلد، إنى لا أخاف على نفسى، وإنما أخاف عليك.
- من المستحيل أن يصل هذا الإنجليزى إلى.
- بل كل شىء ممكن.. وأنا أتوخى الحذر.. فأمس عندما أوشك أبوك أن يفاجئنى، كنت قد أتيت لتفتيش دولاب الأوراق

وسجلات مسيو ديتانج، فإن فيها كل الخطر، وقلبى يحدثنى أن العدو يحوم حولى ويقترب منى، وأشعر أنه يراقبنا، وأنه ينصب شباكه حولنا.

- إذا كان الأمر كذلك فاذهب يا مكسيم ولا تحفل بى فإنى سأكون قوية وأنتظر حتى يزول الخطر وداعًا يا مكسيم.

وعانقته طويلا.. وكانت هى التى أقصته عنها، ودفعته إلى الخارج.

وسمع هولمز صوتيهما وهما يبتعدان.. وغادر مخبأه، واجتاز غرفة رأى فى آخرها سلما هم بأن يهبطه عندما سمع صوت حديث من الطابق الأرضى، فارتد ورأى من الحكمة أن يجتاز ممرًا دائريًّا، ودهش عندما رأى أثاثًا مألوفًا لديه.. وكان أمامه باب موارب فدخل وألقى نفسه فى مكتبة مسيو ديتانج فتمتم:

- هذا عظيم.. إننى أفهم كل شىء الآن.. فإن مخدع كلوتيلد، أى السيدة الشقراء متصل بإحدى شقق البيت المجاور، وذلك البيت له بابه الخاص، وهو لا يقع فى شارع مالرب وإنما فى شارع جانبى وهو شارع مونشانان.. وأفهم الآن أن كلوتيلد كانت تمضى للقاء عشيقها فى حين أن الناس كانوا يعتقدون أنها لا تغادر البيت إطلاقا، وأفهم كذلك السبب فى

ظهور لوبين بجوارى مساء أمس.

وصعد إلى الطرقة واختبأ خلف إحدى الستائر.. وبقى مكانه حتى وقت متأخر من الليل.. وجاء خادم وأطفأ النور الكهربى، وبعد ساعة أضاء الإنجليزى مصباحه، ومضى نحو الدولاب.

وراح يبحث بين الأوراق والمستندات والسجلات حتى عثر على ملف يتضمن كل ما كان ينشده، فقد كان يضم خمس عشرة ورقة، إحداها خاصة ببيت شاجران، الثانية ببيت شارع كلا بيرو وثالثة ببيت البارون دوتريك ورابعة بقصر كروزون، وإحدى عشرة أخرى تتناول كلها أحد عشر بيتا مختلفة فى أنحاء باريس امتدت إليها بعض التعديلات والترميمات.

وفى الساعة الثامنة صباحا أرسل إلى جانيمار الرسالة التالية:

(سأحضر دون ريب هذا الصباح إلى شارع برجوليز، وأعهد إليك بشخص إلقاء القبض عليه، فألزم بيتك الليلة، وغدا الأربعاء حتى منتصف النهار، وتدبر أمرك بحيث يكون تحت يدك ثلاثون رجل).

ثم استقل سيارة راق له سائقها بوجهه المشرق القليل الذكاء، مضت به إلى شارع مالرب، قريبا من بيت ديتانج وقال للسائق:

- (أوقف محركك وارفع ياقة معطفك لأن الجو بارد..

وانتظرنى.. وتجمل بالصبر، وأدر المحرك بعد ساعة ونصف لكى تمضى بى بمجرد عودتى إلى شارع برجوليز).

وتردد للمرة الأخيرة وهو يجتاز عتبة البيت.. أليس من الخطأ أن يهتم بالسيدة الشقراء ريثما يفرغ لوبين من الاستعداد للرحيل، وأليس من الأوفق ومعه كشف البيوت أن يبحث عن البيت الذى يختبئ فيه غريمه، ولكنه قال:

- مهما يكن، فعندما تكون الغادة الشقراء أسيرتى فسأكون سيد الموقف.

ودق الجرس.

كان المسيو ديتانج فى المكتبة.. وراحا يعملان لحظة.. وكان هولمز يبحث عن طريقة لكى يصعد إلى غرفة كلوتيلد عندما رآها تدخل وتحيى أباها ثم تمضى إلى الصالون وتبدأ الكتابة، فأخذ كتابا وقال لمسيو ديتانج:

- هذا كتاب كانت الآنسة كلوتيلد قد طلبت منى أن أذهب به إليها بمجرد أن أعثر عليه.

ومضى إلى الصالون، ووقف أمامها بحيث لا يراها أبوها وقال:

- أنا مسيو ستيكمان السكرتير الجديد لمسيو ديتانج.. وأريد أن أتحدث إليك.

قالت:

- آه.. هل غير أبى سكرتيره؟
- نعم يا آنسة، وأريد أن أتحدث إليك.
- تفضل بالجلوس، فقد فرغت.

وأضافت بضع كلمات إلى خطابها ثم ختمت المظروف، وأقصت عنها الأوراق وأدارت قرص التليفون واتصلت بالخياطة، وطلبت منها أن تسرع بالفراغ من المعطف الذى أوصتها به لأنها بحاجة إليه، ثم تحولت إلى هولمز وقالت له:

- كلى لك يا سيدى.. ولكن ألا يمكن أن نتحدث أمام أبى.
- كلا يا آنسة.. إننى أتكلم فى صوت خافت، ومن الأوفق أن لا يسمعنا مسيو ديتانج.. وسأتحدث دون لف أو دوران.. التقى أبوك بمكسيم برمون منذ خمس سنوات، وقد تقدم إليه مكسيم على أنه مقاول أو مهندس معمارى، وأحب مسيو ديتانج ذلك الشاب.. ولما كانت صحته لا تسمح له بالاهتمام بالعمل فقد عهد إليه بتنفيذ بعض الطلبات التى جابهته من العملاء القدامى.

وأمسك هولمز لحظة وبداله أن وجه الفتاة امتقع، ومع ذلك فقد

قالت فى هدوء تام:

- إننى لا أعرف الحقائق التى تتكلم عنها يا سيدى، ولا أدرى فيم تهمنى أنا بالذات.
- ذلك أن اسم مكسيم برمون الحقيقى هو أرسين لوبين يا آنسة، وأنت تعرفين ذلك خيرًا منى.

انفجرت ضاحكة وقالت:

- هذا مستحيل.. أرسين لوبين.. مكسيم برمون هو أرسين لوبين!.
- بل أقول إنه وجد هنا صديقة تساعده فى تنفيذ مشروعاته، بل أكثر من صديقة.. شريكة عمياء.. وعاشقة مخلصة.. نهضت واقفة وقالت فى هدوء آثار دهشة هولمز:
- إننى لا أدرى الغرض من حديثك هذا يا سيدى وأريد تجاهله، ولهذا أرجوك أن تخرج وأن لا تنطق بكلمة أخرى.

أجابها هولمز:

- لم يخطر أبدا أن أثقل عليك بوجودى، ولكننى مصمم على أن أخرج من البيت وأنت معى نعم يا آنسة سنخرج معا، وسوف

تتبعيننى دون أى اعتراض، ومن غير أية كلمة.. الساعة الآن العاشرة والنصف، وسنخرج بعد خمس دقائق.

– وإذا لم أفعل؟

– سأمضى إلى مسيو ديتانج وأطلعه على الحياة الكاذبة لمكسيم برمون وأذكر الحياة المزدوجة لشريكته.

– شريكته؟

– نعم تلك التى يدعونها الغادة الشقراء، والتى كانت شقراء، وسأذكر له أنك أنت التى قتلت البارون دوتريك.

– اسكت بالله يا سيدى.. وما دمت تعرف كل هذه الأشياء فيجب أن تعرف أننى لم أتعمد قتل البارون.

– لم أقل إنك قتلته عمدًا يا آنسة.. فقد أخبرتنى الأخت أوجست أن البارون كان عرضة لنوبات من الجنون، ولا ريب أنه انقض عليك فى إحدى نوباته، وحاولت الدفاع عن نفسك فطعنته، واستولى عليك الفزع عندئذ فدققت الجرس وهربت دون أن تنتزعى الماسة التى كنت تنوين الاستيلاء عليها.. وبعد لحظة عدت ومعك خادم من البيت المجاور ونقلتما البارون إلى فراشه، وأعدتما ترتيب الغرفة كما كانت.. هذا ما حدث، ومع ذلك فإن يديك هما اللتان قتلتا.

– أهذا كل ما تنوى أن تذكره لأبى؟

– أجل.. وسأقول له إن لدى الشهود للتعرف على الغادة الشقراء، وهم الآنسة جربوا والأخت أوجست التى ستعرف فيك أنطوانيت بريها، والكونتس كروزون التى ستعرف فيك مدام دى ريال.. هذا ما سأقوله له، قالت وقد استعادت رباطة جأشها أمام ذلك التهديد:

– إنك لن تجرؤ.

نهض وتقدم خطوة نحو المكتبة، فأوقفته قائلة:

– لحظة يا سيدى.. أنت شيرلوك هولمز طبعا، أليس كذلك؟

نعم.. وإنى تكلمت فى خمس دقائق يا آنسة، وقد مضت أكثر من نصف ساعة.

– هل تسمح لى أن أصعد إلى غرفتى وأستبدل ثيابى؟

– إذا أردت يا سيدتى فأمضى لانتظارك فى شارع مونشانان، فأنا صديق حميم للبواب جانيو.

قالت وقد بدا عليها الذعر:

– آه.. أنت تعرف إذن؟

– إننى أعرف أشياء كثيرة يا سيدتى.

– حسنا.. سأدق الجرس إذن.

وجىء لها بمعطفها وقبعتها، وقال هولمز:

– يجب أن تجدى عذرًا تبررين به لأبيك سبب رحيلك وغيابك لبضعة أيام.

– لا داعى لذلك يا سيدى، فسأعود سريعا.

ونظر كل منهما إلى الآخر فى تحد، ثم قال:

– شد ما تثقين به يا سيدتى.

– كل الثقة.

– كل ما يفعله جميل إذن؟ هل تقرينه على كل شىء؟ وهل أنت على استعداد لكل شىء من أجله؟

– إننى أحبه يا سيدى.

– وهل تعتقدين أنه سينقذك؟

هزت كتفيها وتقدمت إلى أبيها وقالت له:

سأمضى إلى المكتبة العامة، وسيرافقنى مسيو ستيكمان بعض الوقت.

– هل ستعودين للغذاء؟

– ربما.. وربما لا.. ولكن لا تقلق.

وتحولت إلى هولمز وقالت له:

– هلم بنا يا سيدى.

– إذا حاولت الهرب فسوف أصرخ، وسيلقى القبض عليك ويزج بك فى السجن.. ولا تنسى أنه مطلوب القبض على السيدة الشقراء.

– أقسم لك بشرفى أننى لن أحاول الهرب.

وكانت السيارة لا تزال تنتظر والسائق جالس مكانه وقد رفع ياقة معطفه حتى رقبته.. وفتح هولمز الباب وطلب من كلوتيلد أن تصعد ثم جلس إلى جوارها.

وراح يدعك يديه فى سرور وهو يقول لنفسه إن جانيمار فى بيته، وسأترك الفتاة بين يديه.. ولكننى لن أقول له من هى حتى لا يمضى بها إلى السجن ويعرقل كل شىء.. وإذ أجد نفسى وحدى فسوف أفحص أوراق الملف والليلة أو غدا صباحا على الأكثر أمضى إلى جانيمار، كما هو متفق وأسلمه أرسين لوبين وعصابته.

وفى هذه اللحظة رأى أن السيارة خرجت من باريس من بوابة نوبى، وكان يعرف أن شارع برجوليز فى قلب باريس فصاح بالسائق قائلا:

إنك أخطأت الطريق أيها السائق.. قلت لك أن نمضى بنا إلى شارع برجليز.

ولكن السائق لم يجب، واستمر فى طريقه، فصاح هولمز:

– هل أنت أصم أيها الصديق؟ أقول لك شارع برجوليز.

ولزم السائق الصمت فأحس الإنجليزى بالقلق، ونظر إلى كلوتيلد فرآها تبتسم فتذمر قائلا:

– لماذا تبتسمين؟ ليس لهذا الحادث أى علاقة، ولن تتغير الأمور.

أجابت: طبعا.. لن تتغير.

وخامرته فكرة طارئة، فنهض شيئًا ما وفحص السائق بدقة.. كانت هيئته مختلفة عن السائق الأول.. وتوترت يداه.. وتصبب وجهه عرقا بينما اتضحت الحقيقة فى ذهنه فى ذعر وهلع.. لم يكن السائق غير أرسين لوبين.

وقال لوبين وهو يبتسم:

– ما رأيك فى هذه النزهة الصغيرة؟ ألم ترق لك يا مسيو هولمز؟

أجاب هولمز: بل راقت لى كثيرًا.

وبذلك جهدًا اجباريًّا لكى يتغلب على قلقه وشهر مسدسه وصوبه

إلى كلوتيلد وهو يقول:

– إن لم تقف حالا يا لوبين فسأطلق النار على الآنسة.

قال لوبين دون أن يحول رأسه:

– أنصحك أن تصوب إلى الصدغ إذا أردت أن تصيب منها مقتلا.

وقالت كلوتيلد:

– لا تسرع هكذا يا مكسيم، فالبلاط شديد الانزلاق، وأنا شديدة الخوف.

أعاد هولمز المسدس إلى جيبه وأمسك بأكرة الباب يريد أن يندفع إلى الخارج، رغم ما فى هذه الفكرة من جنون، ولكن كلوتيلد قالت:

– حذار يا سيدى، فإن وراءنا سيارة أخرى.

فانحنى ورأى سيارة تتبعهم حقا.. سيارة كبيرة حمراء بلون الدم وفيها أربعة رجال كالوحوش الضارية فقال لنفسه:

– آه لا داعى للمخاطرة ولأتجمل بالصبر.. وعقد ذراعيه فوق صدره.

ولم يعد يفكر إلا فى شىء واحد والسيارة تنطلق وتعبر السين، وهو بأية معجزة استطاع لوبين أن يحل محل السائق.. من المستحيل أن يكون

السائق الذى اختاره فى الصباح شريكا لأرسين لوبين، وكان لابد أن يسلم بأن لوبين عرف بالخطر الذى يهدد كلوتيلد، وأنه لم يعرف ذلك لا بد أن هدد هو بالذات كلوتيلد، فكيف حدث ذلك مع أنه لم يطلع أحد على نواياه.

ولكنه لم يلبث أن تذكر شيئًا.. المكالمة التليفونية التى تمت بين الفتاة والخياطة.. وفهم على الفور، فقد أحست الفتاة بالخطر عندما طلب محادثتها قائلا إنه السكرتير الجديد لمسيو ديتانج وخمنت اسمه وغرضه واتصلت بكل جرأة وهدوء بلوبين واستنجدت به مستخدمة اصطلاحات متفق عليها بينهما.

ولكن كيف جاء لوبين وكيف اشتبه فى السيارة التى تنتظره.. وكيف رشا السائق؟ وما العمل مع رجل مثله له مثل هؤلاء الأعوان، ويستطيع بنفوذه وقوته أن يوحى لامرأة بكل تلك الشجاعة والجرأة.

وظلت السيارة تطوى الأرض طيا ساعتين كاملتين، وبسرعة رهيبة، إلى أن توقفت أخيرا على شاطئ نهر السين، أمام جسر صغير يرسو أمامه يخت بسيط ومتين تندفع من مدخنته نفثات ملتفة من الدخان، وأسرع رجل إلى لوبين، فسأله: هل اليخت جاهز؟

– نعم.

وكانت السيارة التى تتبعهم قد توقفت هى الأخرى وهبط منها الرجال الأربعة، وخاطب لوبين أحدهم، عرف فيه هولمز صاحب الردنجوت الطويل قائلا:

– أعد السيارة التى استأجرتها من السائق وانقده الدفعة الثانية التى وعدناه بها وهى ألف فرنك، إنه ينتظر فى المقهى الكائن بشارع ليجندر.

وأحدق بقية الرجال بهولمز فلم يسعه إلا أن يتبع لوبين ويدخل معه مقصورة الربان.. وهناك تحول لوبين إليه وقال:

– ماذا تعرف بالتحديد؟

– إننى أعرف كل شىء.

وتراشقا بالنظر، الآن وقد أصبحا غريمين.. غريمين إلى الأبد، وقال لوبين فى شىء من الانفعال:

– إنك اعترضت طريقى مرارًا كثيرة يا صديقى، وهذا أمر لا أرضاه ففيه مضيعة لوقتى فى إحباط الفخاخ التى تنصبها لى، ولهذا فإن تصرفى معك سيتوقف على ردك.. فماذا تعرف بالتحديد.

– أعود فأقول لك إننى أعرف كل شىء يا سيدى.

تمالك أرسين لوبين نفسه وقال:

– سأقول لك أنا ما تعرفه.. إنك تعرف أننى انتحلت اسم مكسيم برمون وأحدثت بعض التعديلات فى خمسة عشر بيتًا من البيوت التى بناها مسيو ديتانج، وأنك تعرف من هذه البيوت أربعة.

– نعم.

– وأن معك كشفًا بالأحد عشر بيتًا الأخرى.

– نعم.

– وحيث إنك تفترض أننى أحتفظ ببيت من هذه البيوت كمخبأ خاص بى وبأصدقائى فإنك اتصلت بجانيمار لكى يعثر على هذا البيت.

– كلا.

– ما معنى هذا؟

– معناه أننى أعمل بمفردى، وأننى كنت أنوى العثور على هذا البيت بنفسى.

– إذن فليس هناك ما أخشاه ما دمت قد أصبحت فى قبضة يدى.

– ليس هناك ما تخشاه طالما أكون فى قبضة يدك.

– معنى قولك هذا أنك لن تبقى فى قبضة يدى.

– هو ذلك.

اقترب لوبين من الإنجليزى، ووضع يده على كتفه فى رفق وقال:

اسمع أيها السيد.. لست فى حالة تسمح لى بمناقشتك، ولست أنت، لسوء حظك فى حالة تسمح لك بإحباط مشروعاتى، ولهذا أرجوك أن تعدنى بشرفك أن لا تحاول الهرب من هذا اليخت قبل أن يصل إلى المياه الإنجليزية.

قال هولمز فى جرأة:

- أعدك بشرفى أننى سأحاول المستحيل للهرب.

- ألا تعلم، عليك اللعنة، أن كلمة واحدة منى لهؤلاء الرجال تكفى لكى يشلو حركتك.. كل هؤلاء الرجال يطيعوننى طاعة عمياء، وبإشارة منى يضعون القيد حول عنقك.

- إن القيود تنكسر.

- ويلقون بك فى البحر على بعد عشرة أميال من الساحل.

- إننى أجيد السباحة.

قال لوبين وهو يضحك: أنت تعرف كيف ترد يا صاحبى.. وليغفر الله لى، وفقد كنت غاضبًا.

أرجو المعذرة إذن، ولنفرغ الآن.. ألا توافقنى على أننى أبحث عن

الوسائل الضرورية لسلامتى وسلامة أصدقائى.

– لك أن تتخذ كل الوسائل، ولكنها لن تجديك.

– اتفقنا.. ومع ذلك فلا تحقد على إذا أنا فعلت.

وفتح الباب ونادى الربان وبحارين وأمسك هؤلاء الأخيران بهولمز، وبعد أن فتشاه أوثقا ساقيه وقيداه فوق الفراش.

وبعد أن انصرف البحاران قال لوبين مخاطبا الربان:

– ليبق أحد رجالك هنا تحت تصرف مسيو هولمز.. ويجب معاملته بكل اعتبار، فهو ليس أسيرًا وإنما ضيف.. كم الساعة معك؟

– الثانية وخمس دقائق.

نظر لوبين إلى ساعته وقال:

– الثانية وخمس دقائق تمامًا.. كم تستغرق رحلتك إلى سوثها مبتن.

– تسع ساعات دون استعجال.

– فلتستغرق إحدى عشرة ساعة إذن.. لا يجب أن تصل إلى الميناء إلا بعد إبحار الباخرة التى تغادر سوثها مبتن فى منتصف الليل والتى تصل إلى الهافر فى الثامنة صباحا، هل هذا مفهوم أيها الربان.. أعود فأقول إن خطرًا كبيرًا يحدق بنا إذا عاد هذا السيد إلى فرنسا بتلك الباخرة، ولهذا لا

يجب أن تصل إلى سوثها مبتن قبل الساعة الواحدة صباحًا.

– هذا مفهوم.

– لك تحياتى يا أستاذ.. وإلى اللقاء فى العام المقبل فى هذه الدنيا أو فى الدنيا الآخرة.

قال هولمز: بل إلى اللقاء غدًا.

وبعد بضع دقائق سمع هولمز السيارة وهى تبتعد.. وانطلق اليخت على الفور.

وفى نحو الساعة الثالثة كان اليخت قد غادر مصب نهر السين، ودخل عرض البحر.. وفى تلك اللحظة كان هولمز مستلقيا فوق الفراش يغط فى النوم.

وفى صباح اليوم التالى، وهو اليوم العاشر من الحرب المعلنة بين الغريمين نشرت جريدة إيكو دى فراسن هذا النبأ:

أصدر أرسين لوبين بالأمس قـرارًا بترحيل البوليس السرى الإنجليزى شيرلوك هولمز.. وقد صدر القرار ظهرًا، ونفذ فى نفس اليوم.. وهبط هولمز فى ميناء سوثها مبتن فى الساعة الواحدة من صباح اليوم.

٦ – القبض على أرسين لوبين

منذ الساعة الثامنة صباحًا واثنتا عشرة عربة

من عربات النقل تزحم شارع كريفو الواقع بين

شارعى بوادى بولونى وشارع بوجو

كان مسيو فيلكس دافى يغادر المسكن الذى يشغله فى الطابق الرابع من البيت رقم ٨ وكان مسيو دويريك ينقل فى نفس الوقت مجموعة الموبيليات والتحف النفيسة التى كان العديد من مراسليه الأجانب يأتون كل يوم بسببها فى الشقق الثلاث التى جمع بينها فى الطابق الخامس من نفس البيت بنفس الشارع وفى الطابق الخامس من كل من البيتين المجاورين.

نقطة غريبة لم يذكرها أحد إلا فيما بعد.. وهى أن عربات النقل لم تكن تحمل اسم الشركة التابعة لها، ولم يبق أحد من الحمالين فى المكان بعد ذلك كانوا يعملون بجد بحيث إنهم فرغوا من عملهم فى الساعة

الحادية عشرة ولم يخلفوا وراءهم غير بعض قصاصات الورق والخرق، كما هى العادة دائمًا فى مثل تلك الأحوال.

ومسيو فيلكس دافى شاب أنيق جدًّا، يعنى بمظهره كل العناية ويمسك فى يده عصا ثمينة ذات قبضتين، مضى بهدوء وجلس على الدكة الخاصة شارع بوادى بولونى، بجوار امرأة بورجوازية تقرأ [illegible] صبى صغير يلعب ويحفر بمجرفة كمية من الرمال.

بعد لحظة، يخاطب المرأة دون أن يحرك رأسه:

– مدام جانيمار؟

– غادر البيت فى الساعة التاسعة هذا الصباح.

– إلى أين؟

– إلى إدارة البوليس.

– ألم تأته برقية؟

– كلا.

– أما زالوا يثقون بك فى البيت؟

– نعم.. إننى أؤدى خدمات صغيرة لمدام جانيمار، وهى تروى لى كل ما يفعله زوجها.. وقد قضينا اليوم معا.

– هذا حسن.. داومى المجىء هنا فى الساعة الحادية عشرة من كل يوم.

ومضى إلى مطعم صغير حيث تناول وجبة خفيفة ثم عاد إلى شارع كريفو وقال للبوابة:

– سألقى نظرة فوق ثم أسلمك المفاتيح.

وأنهى تفتيشه بالغرفة التى كان يتخذها مكتبا له، وهناك أمسك بطرف أنبوبة تتدلى بطول المدفأة، ورفع الغطاء الذى يغطيها، ووضع فيها أداة على هيئة البوق ونفخ فيه، فأجابه صفير.. ورفع الأنبوبة إلى فمه وهمس: ألم يأت أحد يا دوبريك؟

– كلا.

– هل أستطيع الصعود؟

– نعم.

وأعاد الأمبوبة مكانها وهو يقول:

– إلى أين يقودنا التقدم؟

إن عصرنا يزخر بالاختراعات التى تجعل الحياة جميلة وغريبة ومريحة خاصة إذا عرف المرء كيف يستمتع بها مثلى.. وأدار حلية برخام المدفأة فدارت لوحة الرخام نفسها وتحركت المرآة التى بجوارها

كاشفة عن فتحة تبدو منها الدرجات الأولى لسلم مبنى داخل المدفأة نفسها.. وكان نظيفًا وملمعا ومبلطًا بالصينى.

صعد.. وفى الطابق الخامس نفس الفتحة بجوار المدفأة.. وكان مسيو دوبريك ينتظر.. وبادره قائلا:

– هل فرغت من كل شىء وتم النقل؟

– نعم.

– والموظفون.

– لم يعد هناك غير الحراس الثلاثة.

– هلم بنا.

وصعدا نفس الطريق حتى طابق الخدم، وأفضى بهما إلى غرفة بها ثلاث رجال، ينظر أحدهم من النافذة.

غرفة بها ثلاث رجال، ينظر أحدهم من النافذة.

– هل هناك جديد؟

– لا شىء أيها الزعيم.

– بعد عشر دقائق سأنصرف نهائيًا.. ولكم أن تنصرفوا أنتم أيضًا. ولكن نبهونى إذا رأيتم ما يريب.

وهبط الرجلان حتى شقة فيلكس دافى.. وبعد أن أعاد هذا الأخير لوح الرخام مكانه صاح فى مرح:

– دويريك.. وددت أن أرى رأس هؤلاء الذين سيكتشفون كل هذه الخدع الرائعة.. أجراس الإنذار والأسلاك الكهربية والأنابيب الكاوتشوك، والممرات السرية، والألواح التى تتحرك، والسلالم الخفية.. حيل حقيقية ولا فى الخيال.

– وهى دعابة لم أكن بحاجة إليها، ومن المؤسف أن نغادر مثل هذا المكان وأنت تبدأ من جديد، فى مكان آخر يا دوبريك، وعلى نمط جديد، لأنه لا يجب التكرار، لعنة الله على هولمز.

– إنه لم يعد بعد.

– وكيف يعود؟ ليس فى سوثها مبتن غير باخرة واحدة، وليس فى الهافر غير قطار واحد، وهو قطار الساعة الثامنة صباحًا، ويصل فى الحادية عشر، وطالما لم يستقل الباخرة، وهو لم يستقلها طبعًا، فإن التعليمات التى أصدرتها صارمة، فلن يستطيع أن يكون فى فرنسا إلا هذا المساء عن طريق نيوها فن وديب.

– ذلك إذا عاد.

– إن هولمز لا يتخلى عن مهامه أبدًا.. سيعود ولكن بعد فوات

الآوان، وسنكون بعيدًا.

– والآنسة ديتانج؟

– يجب أن ألتقى بها بعد ساعة.

– فى بيتها.

– كلا.. لن تعود إلى البيت إلا بعد أيام.. بعد أن تنتهى من كل شىء وعندما لا يتعين على الاهتمام بها.. ولكن أنت يا دوبريك، يجب أن تسرع، فإن نقل كل طرودنا سيقتضى مدة طويلة ووجودك على الرصيف ضرورى.

– هل أنت واثق أننا لسنا مراقبين.

– ممن؟.. لم أكن أخشى إلا هولمز.

وخرج دوبريك وقام فيلكس دافى بدورة أخيرة، ثم رأى قطعة من الطباشير فأخذها ورسم على الورق الداكن لغرف الطعام مربعًا كبيرًا بداخله ما يلى (هنا، أقام أرسين لوبين، اللص الشريف، خمس سنوات بداية القرن العشرين).

بدا كأن هذه الدعابة سببت له فرحة كبيرة، فنظر إليها وهو يصفر فى مرح ثم صاح:

– الآن وقد رتبت أمورى مع الأجيال القادمة، فلنهرب.. أسرع يا أستاذ هولمز.. سأكون قد غادرت مخبئى بعد ثلاث دقائق، وستكون هزيمتك كاملة.. لم تبق غير دقيقتين.. باقى دقيقة واحدة.. أفلا تأتى؟

حسنًا. إننى أعلن هزيمتك وداعًا يا مملكة أرسين لوبين.. لن أراك بعد.

وداعًا للمساكن الخمسة والخمسين بالشقق الست التى كنت أحكم فيها.

وداعًا يا غرفتى الصغيرة!

ورن جرس فى هذه اللحظة فقطع عليه مرحه.. رنين حاد وسريع.. انقطع مرتين ثم دوى مرتين أخريين ثم انقطع من جديد كان رنين جرس الإنذار.

ماذا حدث إذن؟ وأى خطر غير متوقع؟ جانيمار؟.. لا يمكن.

كان على وشك أن يعود إلى غرفة مكتبه، ولكنه مضى إلى النافذة وأطل منها.. لا أحد.. ليكون العدو داخل البيت؟.. أصاخ السمع وخيل إليه أنه يسمع أصواتًا مبهمة فجرى حتى مكتبه، وبينما هو يجتاز العتبة سمع صوت مفتاح يدار فى الردهة فقال:

– يا للشيطان! لم يعد أمامى وقت.. لعل البيت محاصر.. سلم الخدم؟ محال.. هناك المدفأة لحسن الحظ.

ودفع الحلية الرخامية، ولكنها لم تتحرك.. وحاول مرة أخرى ولكن عبثًا وفى نفس اللحظة أحس بأن الباب يفتح وأقدامًا تقترب، وصاح: يا للشيطان.. إننى وقعت.

وراح يدفع الحلية بكل قوته، ولكنها لم تتحرك، لسوء الحظ لم يتحرك الميكانيزم الذى تحرك منذ قليل، وسمع صوتًا خلفه يقول:

– ما الخبر يا مسيو لوبين؟.. أهناك شىء لا يدور كما تريد؟

أجفل لوبين وقد هزه الرعب، كان شيرلوك هولمز أمامه.

***

شيرلوك هولمز.. نظر لوبين إليه وهو يرمش بعينيه فى دهشة من أمره.

كيف هذا؟ إنه أرسله بالأمس إلى إنجلترا، كما لو كان يرسل طردًا شديد الخطر، ولكن ها هو الآن يقف أمامه، حرًّا، طليقًا ومزهوًّا بنصره.

ولكى تتم هذه العملية، رغم إرادة أرسين لوبين، فلابد أن القوانين الطبيعية قد انقلبت.. شيرلوك هولمز أمامه!

وقال الإنجليزى فى لهجة تنطق بالسخرية:

– اعلم يا مسيو لوبين أننى لم أعد أفكر فى هذه اللحظة فى الليلة

التى أرغمتنى على قضائها فى بيت البارون دوتريك، ولا فى الضرر الذى لحقته بصديقى واطسون، ولا فى اختطافى بالسيارة ولا فى تلك الرحلة التى أخبرتك عليها وأنا موثق اليدين والقدمين فإن هذه الدقيقة تمحو كل شىء، وأنا لم أعد أذكر شيئًا من كل ذلك فقد وجدت مكافأتى بسخاء.

لزم لوبين الصمت.. فاستطرد الإنجليزى:

– أليس هذا رأيك؟

نظر لوبين إليه فى تفكير عميق ثم قال:

– إن فرارك من السفينة ليس إلا حلقة ثانوية من كفاحنا.. ولكن وجودك هنا أمامى، وحدك.. هل تسمع.. أمامى وحدك يحملنى على الظن بأن انتقامك كامل وأكيد.

– تمامًا.

– وأن هذا البيت؟

– محاصر.

– والبيتان المجاوران؟

– محاصران.

– والشقة التى فوق هذه؟

– الشقق الثلاث التى يقيم فيها مسيو دوبريك فى الطابق الخامس محاصرة.

– بحيث؟

– بحيث إنك وقعت فى المصيدة يا مسيو لوبين.. فى المصيدة تمامًا.

أحس لوبين بنفس الأحاسيس التى أحس بها هولمز فى السيارة، نفس الغضب، ونفس التمرد، وجعلته نفس الصراحة ينحنى أخيرًا أمام الواقع.. كان كل منهما من القوة بحيث يتقبل الهزيمة كشر مؤقت لابد من الإذعان له، وقال: نحن متساويان إذن.

***

بدا السرور على الإنجليزى إزاء هذا الاعتراف.. وقال لوبين وقد تمالك نفسه:

– ولا أشعر بأى استياء، فإنه لمن المضجر أن يكسب المرء كل الجولات.. وما كان على إلا أن أمد يدى وأصيبك فى صدرك.. ولكن الأمر أصبح مسليًا.. أرسين لوبين فى المصيدة، فكيف سيخرج منها؟.. يا لها من مغامرة!.. إننى أدين لك بانفعال شديد يا أستاذ.. ولكن هذه هى الحياة!

واقترب من الإنجليزى وقال له:

– والآن؟ ماذا تنتظر؟ إن جانيمار هنا مع رجاله، فلماذا لا يدخل؟

– طلبت منه أن ينتظر فأنا لم أطلب مساعدته إلا بشرط حاسم، وهو أن يدعنى أتصرف كما أشاء.. ثم إنه يعتقد أن مسيو فيلكس دافى ما هو إلا أحد شركاء لوبين.

– أعود وأكرر سؤالى.. لماذا دخلت وحدك؟

– سأوجز إذن.. إن الغرض من وجودى فى فرنسا ليس القبض عليك وإنما العثور على الماسة الزرقاء الحقيقية، لأن تلك التى عثروا عليها مع القنصل النمساوى مقلدة.

– هذا صحيح.. فقد أرسلت الغادة الشقراء الماسة الحقيقية إلى، وصنعت ماسة أخرى تشبهها تماما.. ولما كانت الشبهات تحوم حول القنصل النمساوى فقد دست الغادة الشقراء الماسة المزيفة فى متاعه لكى تبعد عنها الشبهة.

– واحتفظت أنت بالماسة الحقيقية؟

– طبعًا.

– أريد هذه الماسة.

– هذا محال، وإننى آسف جدا.

– إننى وعدت الكونتس دى كروزون بأن أعيدها إليها، وسأحصل عليها.

– وكيف تحصل عليها وهى معى؟

– وسأحصل عليها بالذات لأنها معك.

– معنى هذا أنك تنتظر أن أردها إليك.

– بل سأشتريها منك؟

– وماذا تعطينى مقابلها؟

– حرية الآنسة ديتانج.

– حريتها؟.. ولكننى أعرف أنه ليس مقبوضًا عليها.

– سأزود مسيو جانيمار بالمعلومات الضرورية، وسيلقى القبض عليها وهى الأخرى لأنك لن تستطيع حمايتها.

انجفر لوبين ضاحكًا وقال:

– إنك تعرض على ما لا تملكه، فإن الآنسة ديتانج فى أمان تام ولا تخشى شيئًا.. وأسألك أن تعرض على شيئًا آخر.

تردد الإنجليزى، بادى الضيق، وقد احمرت وجنتاه قليلا، ثم ألقى

يده فجأة على كتف غريمه وقال:

– وإذا عرضت عليك شيئًا آخر.

– حريتى؟

– كلا.. ولكننى أستطيع أن أخرج من هذه الغرفة وأن أتداول مع مسيو جانيمار ريثما تفكر.

قال لوبين وهو يدفع حلية الرخام فى حنق ولكن فيم ينفعنى ذلك؟ إن هذا الجهاز اللعين لا يعمل.

ولكن هذه المرة، ويا لسخرية، تحرك الجهاز تحت أصابعه.

وكان فى ذلك النجاة والهرب الممكن، وما هذه الحالة لا حاجة به إلا الخضوع لشروط هولمز، فراح يمشى جيئة وذهابًا وهو يفكر.. ثم ألقى يده بدوره على كتف الإنجليزى وقال:

– بعد التفكير والتروى أحب أن أتدبر شئونى بنفسى.. ولست بحاجة إلى أحد.

ولكن عندما يمسك بك جانيمار فلن يتخلى عنك.

– من يدرى؟

– ولكن هذا جنون: فكل المنافذ مسدودة.

- بل لا يزال هناك منفذ واحد.

- وهو؟

- وهو الذى سأختاره.

- هذا كلام فارغ.. إن اعتقالك أمر مفروغ منه.

ولكنه لم يتم بعد.. وسأحتفظ بالماسة الزرقاء.

نظر هولمز إلى ساعته وقال:

- الساعة الآن الثالثة إلا عشر دقائق.. سأستدعى جانيمار فى الساعة الثالثة.

- أمامنا إذن عشر دقائق للثرثرة.. فلننتهز هذه الفرصة يا مسيو هولمز وقل لى كيف عرفت عنوانى واسمى كفيلكس دافى؟

- عرفت ذلك من الآنسة ديتانج.. ولعلك تتذكر أننى عندما أردت أن أختطفها اتصلت بك.

- هذا صحيح.

- حسنًا.. فهمت فيما بعد أن الخياطة هى أنت.. وبذلت جهدى الليلة وأنا فى اليخت وتمكنت من الرقمين الأخيرين من الرقم الذى أدارته وهى ٧٣، ولما كنت أملك كشفا ببيوتك (المعدلة) فقد تمكنت

من معرفة عنوان فيلكس دافى من رقم التليفونات وإذ عرفت هذا العنوان، طلبت مساعدة مسيو جانيمار.

– هذا عظيم.. ولا أملك إلا أن أنحنى أمام ذكائك وعبقريتك.. ولكن الشيء الذى لا أفهمه هو كيف استطعت أن تركب قطار الهافر، وكيف هربت من اليخت؟

– أنا لم أهرب؟ فأنت قد أمرت الربان بأن لا يصل إلى ميناء سوثها مبتن إلا فى الساعة الواحدة، ولكنه وصل إليها فى منتصف الليل، وبذلك استطعت أن أستقل باخرة الهافر.

– إذن فقد خاننى الربان؟.. هذا أمر لا أصدقه.

– إنه لم يخنك.. وإنما استطعت أن أقدم ساعته ساعة من غير أن يفطن إلى ذلك وأنا أروى له بعد الدعابات التي أثارت ضحكه.

– أستطيع أن أفهم أنك قدمت ساعته من غير أن يفطن، ولكن ساعة اليخت؟

– آه.. كان ذلك أمرًا أكثر صعوبة، لأننى كنت موثق القدمين ولكن البحار الذى كان يقوم على حراستى أراد أن يساعدنى فى غفلة من الربان.

– البحار؟... لا أصدق ذلك؟م.. وهل قبل؟

– أوه.. إنه لم يدرك أهمية فعلته.. قلت له إنه لابد أن أستقل أول قطار إلى لندن.. وقد اقتنع مقابل هدية صغيرة.. فى نيته أن يقدمها إليك على كل حال.

– أية هدية؟

– هدية تافهة تقريبًا، وأعنى بها الماسة الزرقاء المقلدة التى أعطتنى الكونتس إياها.

ضحك لوبين حتى كاد أن يستلقى على قفاه، وقال فى مرح:

– ما أغرب هذا! ماستى المقلدة! وساعة الربان؟.. وساعة اليخت.

وكان قد اقترب أثناء ذلك من هولمز فتراجع هذا الأخير وقال:

– الساعة الآن الثالثة يا مسيو لوبين، فما هو ردك؟

– الثالثة هكذا حالا.. ردى؟.. هو أنك رجل لحوح.. هذه هى نهاية اللعبة إذن.. إما حريتى.

وإما الماسة الزرقاء.

– حسنًا عليك أنت أن تبدأ اللعبة، فماذا ستفعل؟

قال هولمز وهو يخرج مسدسه:

– إننى سأسحب الورقة الرابحة.

قال لوبين وهو يوجه لكمة إلى وجهه:

– الورقة الرابحة معى أنا.

ولكن هولمز كان قد تمكن من إطلاق رصاصة لاستدعاء جانيمار.

وامتقع لونه وترنح، فى حين أسرع لوبين إلى المدفأة.. وكانت لوحة الرخام قد بدأت تتحرك، ولكن بعد فوات الأوان، إذ كان جانيمار أقرب بكثير مما كان لوبين يظن، فدخل وهو يقول:

– سلم نفسك يا لوبين وإلا..

ودخل خلفه عشرون رجلا من أشد الرجال قوة وأغلظهم قسوة، وما كانوا إلا ليبطشوا به كالكلب عند أقل مقاومة.. ولهذا قال فى هدوء: لا داعى لاستعمال القوة.. إننى أسلم نفسى.

وعقد ذراعيه فوق صدره.

***

أحدثت كلماته دهشة، وكان لها صدى عجيب فى تلك الغرفة التى خلت من الأثاث والرياش.. إننى أسلم نفسى.. كلمات عجيبة فقد توقعوا أن يختفى فجأة فى منفذ خفى أو أن ينهار جزء من الجدار أمامه ويحجبه عنهم وتقدم جانيمار وهو يكاد يطير من فرط الانفعال وقال

فى سرور لا يوصف:

– إننى ألقى القبض عليك يا لوبين.. ارتعش لوبين وقال:

– إنك تثير اشمئزازى يا جانيمار.. ما هذه السحنة الكئيبة؟ ليخال أنك تؤبن صديقًا.. لا تكن كئيبًا هكذا!.

– إننى ألقى القبض عليك.

– وإن هذا ليذهلك.. المفتش القدير جانيمار يلقى القبض على لوبين الشرير.. إنها لحظة تاريخية لا تفهم مدى أهميتها وهذه هى المرة الثانية التى يقع فيها هذا الحدث العظيم.. مرحى يا جانيمار.. إن لك مستقبلا زاهرًا.

ومد معصميه فوضع جانيمار فيهما الأصفاد.

وكان حدثًا غريبًا، رغم ما عرف من رجال البوليس من شدة وغلظة.

فقد أدهشهم أن يروا لوبين يمد يديه بمثل هذا الهدوء والاستسلام وتمتم لوبين يحدث نفسه:

– مسكين أنت يا لوبين!.. ماذا يقول أصدقاؤك وهم يرون كفى هذه الحالة.. المهنية؟

وباعد ما بين قبضتيه بجهد مستميت مستخدمًا كل عضلاته، وبرزت عروق جبينه، وتغلغلت حلقات الأصفاد فى لحم يديه ثم تحطمت، وقال: إلى بغيرها، فهذه الأصفاد لا تساوى شيئا.

وحضروا يديه بأصفاد مضاعفة، فقال:

- لا بأس بهذا الاحتياط.. كم عددكم أيها الأصدقاء؟.. خمسة وعشرون؟ ثلاثون؟.. أنتم كثيرون.. ولا طاقة لى بكم.. ليتكم كنتم خمسة عشر فحسب.

كانت شخصيته غريبة حقا، كما لو كان ممثلا يقوم بدوره باقتدار وموهبة.. ونظر هولمز إليه فى احترام وتقدير.. والحق أنه بدا له فى هذه اللحظة كخصم غريب، يساوى وحده رجال البوليس الثلاثين المحيطين به، وقال لوبين يخاطبه:

- حسنًا يا أستاذ. بفضلك أنت سيتعفن لوبين فوق (برش) الزنزانة.

اعترف إذن أن ضميرك ليس هادئًا تمامًا وأنه يعذبك.

هز الإنجليزى كتفيه رغمًا عنه، وحال لسانه يقول:

- ما كان عليك إلا.

وصاح لوبين.

– أبدًا.. أبدًا.. لن أعيد لك الماسة.. إنها كلفتنى عناء شديدًا، وسأقول لك السبب عندما أتشرف بزيارتك فى لندن، ربما فى الشهر القادم.

وأجفل، فقد دوى فى السقف صوت.. ولم يكن صوت جرس الإنذار، وإنما صليل التليفون، ولم تكن أسلاكه قد رفعت بعد.. وأتى لوبين بحركة نحو التليفون فى غيظ كما لو كان يريد أن يحطمه وأن يكتم الصوت الذى يريد أن يحدثه.. ولكن جانيمار رفع السماعة وقال:

– آلو.. آلو.. نعم، هذا هو رقم ٦٤٨٧٣.

أقصاه هولمز على الفور فى صراحة وقوة.. وأخذ السماعة ووضع منديل فوق المسماع لكى يغير من نبرات صوته.. ورفع عينيه فى تلك اللحظة نحو لوبين.. وكانت النظرة التى تبادلاها أفصح من كل كلام، فقد أدرك كل منهما شخصية المتحدث.. كانت هى الغادة الشقراء.. وكانت تعتقد أنها تتحدث إلى فيلكس دافى أو بالأحرى إلى مكسيم برمون، والحقيقة أنها كانت تحادث هولمز.

وعاد الإنجليزى يقول: آلو.. آلو..

صمت جديد ثم قال هولمز: نعم، أنا مكسيم.

اتضحت المأساة على الفور، وفى دقة مأساوية.. ولم يعد لوبين الساخر الذى لا يقهر يفكر فى إخفاء قلقه، وامتقع لونه، وحاول أن

يسمع وأن يخمن، فى حين استطرد هولمز يقول:

– نعم، نعم، انتهى كل شىء.. وكنت أهم بالاتصال بك كما هو متفق، أين؟.. ولكن حيث أنت.. ألا تظنون أننا.

وتردد وراح يبحث عن كلماته، ثم أمسك، كان واضحًا أنه يحاول أن يسأل الفتاة من غير أن يكشف عن نفسه، وكان يجهل تمامًا أين هى.. ثم بدا كأن جانيمار يضايقه.. لو تقع معجزة وتنقطع هذه المكالمة الشيطانية.

وقال هولمز:

– آلو.. آلو.. ألا تسمعيننى.. وأنا أيضا لا أسمعك.. هل تسمعين الآن.. أرى من الأوفق أن تعودى إلى البيت.. أى خطر؟ لا يوجد خطر على الإطلاق.. ولكنه فى إنجلترا وقد تلقيت برقية من سوثها مبتن تؤكد لى وصوله هناك.. لا تضيعى الوقت إذن أيتها العزيزة.. إلى الملتقى قريبًا.

وأعاد السماعة مكانها وقال:

– مسيو جانيمار.. أريد ثلاثة من رجالك.

لإلقاء القبض على الغادة الشقراء؟.. أليس كذلك؟

– نعم.

– هل تعرف أين هى؟

– نعم.. يا له من انتصار عظيم.. لوبين وشريكته.. إنه ليوم جميل.. فولنفان.. خذ رجلين واذهبوا مع السيد.

وابتعد الإنجليزى، يتبعه الرجال الثلاثة.

كان فى هذا النهاية.. ستقع الغادة الشقراء هى الأخرى بين يدى هولمز وذلك بفضل إصراره وإلحاحه، وبفضل تواطؤ الأحداث السعيدة انتهت المعركة فى صالحه وبهزيمة لوبين.

– مسيو هولمز.

توقف الإنجليزى وقال: نعم يا مسيو لوبين!

بدا كان هذه الضربة الأخيرة قد هزت لوبين تمامًا.. وامتلأ جبينه بالغضون.. أحس بالتعب والقهر، ومع ذلك فقد اعتدل فى كبرياء أخير وصاح رغم كل ما يشعر به:

– لقد تألب القدر ضدى، فوقف منذ قليل أمام فرارى من المدفأة وأوقعنى بين يديك، واستخدم التليفون الآن لكى يهديك بالغادة الشقراء، وإننى رهن أمرك، ومستعد للتفاوض معك.

أخذ هولمز جانيمار على حدة، والتمس منه بلهجة لا تقبل الجدل أن

يسمح له بتبادل بضع كلمات مع لوبين، ثم عاد إلى هذا الأخير، وقال له فى انفعال وغلظة:

– ماذا تريد؟

– حرية الآنسة ديتانج.

– أنت تعرف الثمن.

– إننى أقبل كل شروطك.

– والماسة الزرقاء؟.

– خذ عصاى، هناك، بجوار المدفأة، واضغط بإحدى يديك على مقبضها وحركه بيدك الأخرى.

أخذ هولمز العصا، وفعل كما قيل له، ورأى أن المقبض يدور، ووجد فى جوفه علبة من الملاط بداخلها الماسة، فأخذها وقال:

– إن الآنسة ديتانج حرة يا مسيو لوبين.

– حرة فى المستقبل، كما فى الوقت الحاضر.. أليس هناك ما تخشاه؟

– ليس هناك ما تخشاه منى ولا من أى أحد بعد اليوم، بل إنى نسيت حتى اسمها.

– شكرًا. إلى الملتقى لأننا سوف نلتقى يا مسيو هولمز، أليس كذلك؟

ودار بين جانيمار وهولمز نقاش حاد أنهاه هولمز قائلا:

– ويؤسفنى كثيرًا أننى لا أشاطرك هذا الرأى يا مسيو جانيمار.. ولكن لا وقت عندى لإقناعك.. إننى راحل إلى إنجلترا بعد ساعة.

– ولكن، والسيدة الشقراء؟

– إننى لا أعرف هذه السيدة.

– ولكنك قلت منذ لحظة.

– إننى قدمت إليك أرسين لوبين.. وهذه هى الماسة الزرقاء.. أرجو أن تسلمها بنفسك للكونتس دى كروزون.. ويبدو لى أنه ليس هناك ما تشكو منه.

– والسيدة الشقراء؟

– ابحث عنها بنفسك.

ووضع قبعته فوق رأسه وانصرف مسرعًا كمن اعتاد أن لا يضيع وقته بعد إنهاء مهمته.

***

هتف لوبين: مع السلامة يا أستاذ، وصدق أننى لن أنسى ما بيننا من علاقات ودية وتحياتى لمسيو واطسون.

وإذا لم يتلق ردًّا قال:

– هذا رجل يفتقر إلى المجاملة والكياسة وينصرف بلا استئذان.. هل تظن يا جانيمار أن الفرنسيين يتصرفون بهذه الطريقة غير المهذبة.. ولكن ماذا تفعل؟ عم تفتش لم يعد بالبيت شيء أيها الصديق العزيز.. ولا حتى قصاصة ورق.. لقد انتقلت ملفاتى إلى مكان أمين.

– من يدرى.. من يدرى.

وبدت عليه أمارات الخيبة أخيرًا عندما لم يسفر تفتيشه عن شيء وضحك لوبين وقال فى سخرية:

– هل كنت تتوقع أن تجد كشف بأسماء زملائى أو دليلاً على علاقتك بإمبراطور ألمانيا؟ إن ما يجب أن تبحث عنه يا جانيمار إنما هو الأسرار الصغيرة لهذا المسكن، فهذه الأنبوبة وسيلة للاتصال بالمساكن الأخرى، وبهذه المدفأة سلم، وهذا الجدار مجوف.. ثم الأسلاك الكهربائية.. اضغط على الزر مثلا يا جانيمار.. وقال بعد أن أطاعه جانيمار:

– ألم تسمع شيئًا؟

– كلا.

– ولا أنا.. ومع ذلك فإنك قد أنبأت قائد منطادى بأن بعد المنطاد الذى سيحلق بنا فى الجو بعد قليل.

– كفى هذرًا.. وهلم بنا.

وتقدم بضع خطوات وتبعه رجاله، أما لوبين فلم يتحرك.. ودفعه الحراس.. ولكن عبثًا.. وقال جانيمار:

– حسنًا.. هل ترفض أن تمشى.

– هذا يتوقف على المكان الذى تريد أن تمضى بى إليه.

– إلى إدارة البوليس طبعًا.

– لن أتحرك إذن فلا عمل لى هناك.

أتى جانيمار بإشارة فأسرع رجلان ورفعا لوبين من ذراعيه ولكنهما أطلقاه على الفور وهما يصرخان من فرط الألم.. فقد غرز فيهما بيديه إبرتين طويلتين.

استولى الغضب عندئذ على الباقين فانقضوا عليه، تدفعهم الرغبة فى الانتقام، وراحوا يكيلون له الضربات كيفما اتفق، وزمجر جانيمار عندئذ محنقًا: لو أصبتموه بأذى فسيكون لى شأن معكم.

وانحنى فوق لوبين لمساعدته.. وإذ رأى أنه يتنفس أمر رجاله أن يحملوه من قدميه ومن رأسه وقال:

– ترفقوا به.. يا لكم من أوغاد وغلاظ القلوب.. إنكم أوشكتم أن

تقتلوه كيف حالك يا لوبين.

فتح لوبين عينيه وتمتم:

– ليس هذا جميلا منك يا جانيمار.. إنك تركتهم يوسعوننى ضربًا.

– الغلطة غلطتك أنت، فلولا عنادك.. ولكن هل تتألم؟

وكانوا قد بلغوا البسطة فتأوه لوبين قائلا:

– جانيمار.. المصعد.. إنهم سيحطمون عظامى.

قال جانيمار:

– هذه فكرة طيبة.. بل فكرة رائعة.. ثم إن السلم ضيق، وليست هناك وسيلة.

وجىء بالمصعد.. ونقل الرجال لوبين إليه، وأجلسوه على المقعد بكل حرص وعناية، وجلس جانيمار بجواره، وقال لرجاله:

– اهبطوا السلم، وانتظرونى أمام غرفة البواب.

وأغلق باب المصعد، ولكنه لم يكن يفعل ذلك حتى انطلقت الصرخات، ذلك أن المصعد ارتفع إلى أعلى كما لو كان منطاد انقطع حبله، ودوت ضحكة ساخرة، وصاح جانيمار وهو يبحث عبثًا عن مفتاح المصعد يا للشيطان!

وإذ لم يجد شيئًا أسرع يقول:

– اصعدوا إلى الطابق الخامس، واحرسوا باب المصعد.

صعد الرجال السلم أربعًا أربعًا.. ولكن حدث شيء عجيب، فقد بدا كأن المصعد ثقب سقف الطابق الخامس وتوقف فى الطابق العلوى، وهو طابق الخدم.. وكان هناك ثلاثة رجال ينتظرون، ففتحوا الباب وانقض اثنان منهم على جانيمار وشلا حركته، وكان الذهول قد استولى عليه ولم يدر ماذا يفعل، أما الثالث فحمل لوبين.

– لقد أنذرتك يا جانيمار.. الاختطاف فى المنطاد.. وبفضلك أنت.

كن رحيمًا فى المرة القادمة، وتذكر على الخصوص أن أرسين لوبين لا يخضع للضرب من غير سبب وداعًا.

وكان المصعد قد أغلق وأعيد إلى الطوابق السفلى، وتم كل ذلك بسرعة بحيث وصل جانيمار إلى الطابق الأرضى فى نفس الوقت الذى وصل فيه رجاله.

ومن غير أن ينطق أحدهم بكلمة، وكما لو باتفاق سابق، أسرع الجميع إلى سلم الخدم، وهو الطريق الوحيد المؤدى إلى الطابق المعد لإقامة الخدم، وقادهم ممر طويل إلى باب موارب أفضى بهم إلى ممر ببيت آخر يؤدى إلى سلم هبطه جانيمار، واجتاز حوشًا وردهة وألفى نفسه فى

شارع آخر هو شارع بيكو، وعندئذ فهم أن البيتين متجاوران ويطلان على شارعين متوازيين ويبتعد كل منهما عن الآخر بنحو ستين مترًا.

دخل غرفة البوابة وأظهر لها بطاقته وقال: هل خرج من هنا أربعة رجال.

– نعم، الخادمان اللذان يقيمان بالطابق الرابع والخامس، وبرفقتهما صديقان.

– ومن الذى يقيم فى الطابقين الرابع والخامس؟

– كان يقيم بهما السيدان فوفيل وابنا عميهما آل بروست، وقد تركوا المسكين اليوم ولم يبق غير الخادمين، ولكنهما انصرفا منذ قليل.

انهار جانيمار فوق أريكة بالغرفة وقال:

– آه.. لقد ضاعت منا فرصة كبيرة، كانت كل العصابة تقيم فى هذه البيوت.

***

بعد أربعين دقيقة، وقفت سيارة أمام محطة الشمال وهبط منها رجلان عهدا بمتاعهما إلى أحد الحمالين وأسرعا لركوب قطار كاليه السريع، وقال أحدهما:

– أسرع يا واطسون، فلا يجب أن يفوتنا هذا القطار، آه، لن أنسى أبدًا هذه الأيام العشرة.

– إنك أنجزت مهمتك بكل اقتدار وخرجت أنا من هذه المغامرة بذراع مكسورة.

صاح هولمز فى مرح: لك أن تحمد الله فذراعك الأخرى سليمة.

ومنح الحمال نصف فرنك وهو يقول:

– شكرًا لك يا صاحبى.

أجابه الحمال: وشكرًا لك يا مسيو هولمز.

رفع الإنجليزى عينيه، وإذا به يرى أرسين لوبين أمامه، فهتف مشدوهًا أنت.. أنت!..

وقال واطسون متلعثما وهو يلوح بيده السليمة:

– أنت؟.. وكذلك مقبوض عليك، قال هولمز ذلك، عندما غادر تركك بين يدى جانيمار وثلاثين من رجاله.

عقد لوبين ذراعيه وقال ساخطًا:

– وهل ظننت أننى سأترككما ترحلان من غير أن أودعكما بعد أواصر الصداقة التى ربطت بيننا، إن ذلك ليكون قلة ذوق منى.

وصفر القطار فعاد يقول:

– ولكننى أسامحكما.. هل معكما كل ما يلزمكما.. تبغ وعيدان من ثقاب وجرائد؟.. ستجدان فيها أنباء القبض على وتمجيد عملك الباهر الأخير يا أستاذ.. والآن وداعًا.. يسرنى أننى تعرفت بك.. وإذا احتجت إلى فإنه يسرنى أن.

ووثب إلى الرصيف وأغلق الباب وقال مرة أخرى وهو يهز منديله:

– وداعًـا.. سأكتب لك، وستكتب لى أنت أيضا.. وذراعك المكسورة يا مستر واطسون.. كيف حالها.. إننى فى انتظار أنبائكما معا.. بطاقة بريدية من وقت لآخر.. والعنوان:

أرسين لوبين، باريس، وهذا يكفى، فلا داعى للصق طابع بريد.. وداعًا.. وإلى أن نلتقى قريبًا.

تمت